

التقليد

عناصر الموضوع

٣٤٢	مفهوم التقليد
٣٤٤	الألفاظ ذات الصلة
٣٤٦	أسباب التقليد
٣٦٤	مجالات التقليد
٣٩٠	آثار التقليد والتبعية
٤٠٢	مواجهة التقليد والتبعية

مفهوم التقليد

أولاً: المعنى اللغوي:

التقليد مصدر للفعل الرباعي «قلد» بتضعيف اللام المفتوحة. ويأتي في اللغة على معان كثيرة، منها:

١. الإحاطة: أي ما يحيط بالشيء. ومنه القلادة، وهي «اسم لما يشتمل على الشيء ويحيط به كاللفافة والعمامة»^(١). فكأن المقلد يجعل ما اكتسبه ممن قلده، قلادة في عنقه، تحيط به، كما تحيط القلادة بالعنق.
٢. الإلزام: يقال: «قلده الأمر ألزمه إياه»^(٢) فالمقلد ألزم المقلد فكرته وحمله إياها.
٣. التناوب: قال الزمخشري: «وهم يتقaldون الماء: يتناوبونه»^(٣). فالعادات والأفكار التي هي محل التقليد، تتناوب بين الأجيال، وتنتقل من جيل إلى جيل.
٤. المحاكاة والاتباع من غير تفكير^(٤). فالمقلد يحاكي من يقلده، ويفعل مثل فعله من غير تفكير ولا نظر ولا تأمل.
٥. السبق: «المقلد من الخيل السابق يقلد شيئاً ليعرف أنه قد سبق»^(٥)، فيكون المقلد قد سبق بفكرته وعمله من يقلده، فالمقلد سابق، والمقلد مسبق.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

التقليد يتناوله أهل الفقه وأهل الاجتماع والذي يهمننا في هذه الدراسة، ما تناوله أهل الاجتماع من عادات وتقاليده وسلوكات سلبية توارثها الناس فرادى وجماعات. وقد ورد لكلمة التقليد في الاصطلاح عدة تعريفات، منها:

قال الجرجاني: «التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل»^(٦).

- (١) تاج العروس، الزبيدي، ٦٧/٩.
- (٢) العين للفراهيدي ١١٧/٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/٣٦٧.
- (٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ٣٧٥.
- (٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/٥٢٦.
- (٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/٣٦٧.
- (٦) التعريفات، الجرجاني ص ٩٠.

«والمقصود بالتقليد الأعمى بالنسبة للمسلم: ما سلكه بعض المسلمين - من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص - من اتباع الكفار، والأخذ منهم، والتشبه بهم، في شتى ألوان الحياة وأنماط السلوك والأخلاق، وأشكال الإنتاج، في الاعتقاد والتصور والفكر والفلسفة والسياسة والاقتصاد والأدب والفن والثقافة والنظم والتشريع، من غير اعتبار للعقيدة والشريعة الإسلامية والأخلاق الفاضلة، ومن غير إلزام للمنهج الإسلامي الأصيل»^(١).

ومن هذه التعريفات، يمكن بيان الآتي:

١. المقلد أقل علمًا من المقلد في المسألة التي اعتمد المقلد فيها على رأي من قلده.
٢. الواجب قبول قول صاحب الاختصاص، فخرج من ذلك القبول بقول من ليس من أهل الاختصاص.
٣. إن التقليد هو الأخذ بقول الغير، أما الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع وأصحاب العلم والمذاهب فلا يسمى تقليدًا وإنما هو اتباع، فيكون المراد من قول الغير: رأيه واجتهاده.
٤. التقليد لا يكون إلا مع عدم معرفة الدليل، وهذا إنما يتأتى من العامي المقلد الذي لا نظر له في الأدلة.
٥. التقليد يجب أن يكون لمن يتصف بالعلم والعدالة، فتقليد من لا يوصف بعلم ولا عدالة، فيه تضييع للشخصية وإذابة لها في شخص من يقلده من الناحية السلبية. فالمعنى الاصطلاحي للتقليد لا يخرج عن معنى الإحاطة والمحاكاة، وهما من المعاني اللغوية للكلمة.

(١) التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل ص ٥٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتباع:

الاتباع لغة:

التاء والباء والعين: أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلاناً، إذا تلوته واتبعته، وأتبعته إذا لحقته^(١).

والمعنى اللغوي يدور حول الاقتفاء والاقتداء، واللحاق بشيء أو شخص والسير خلفه.

الاتباع اصطلاحاً:

قال الشرباصي: «والمعنى الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه أسوة وقدوة، فيمضي اللاحق على سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع... وخير اتباع ينبغي أن يتحلى به المرء ويلتزمه ويحرص عليه، اتباع هدي الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هَذَا يَفْلَاحْ وَيَسْتَقِيمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»^(٢).

الصلة بين الاتباع والتقليد:

في الاتباع يميز الإنسان الخبيث من الطيب، ويتبين طريقه على بصيرة، بخلاف التقليد الذي يحصل من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص، وينبه إلى أنه ورد في نصوص القرآن الكريم الاتباع بمعنى التقليد في مجموعة من الآيات.

٢ التشبه:

التشبه لغة:

ترد هذه الكلمة بمعنى: «المماثلة والمحاكاة والتقليد»^(٣). قال ابن منظور: «وأشبه الشيء الشيء: ماثله... وتشابه الشيئان واشتبهتا: أشبه كل واحد منهما صاحبه»^(٤). يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: «تساكل علينا في أسنانها وألوانها»^(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/٣٦٢.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ١٣٨/٥.

(٣) من تشبه بقوم فهو منهم، ناصر العقل، ص ٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/٥٠٣.

(٥) تفسير السمرقندي، ١/٦٣.

والتشبه اصطلاحًا:

هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أو هو عبارة عن تكلف ذلك وتقصده وتعلمه، وقد يعبر عن التشبه بالتشكل والتمثل والتزيي والتحلي والتخلق^(١).

الصلة بين التشبه والتقليد:

التقليد صفة نقص لا تقع إلا من الجانب الضعيف، وفيه معاني الانقياد، والتفويض، والاستسلام، والطاعة العمياء من غير نظر وتمييز بين ما يضر وما ينفع، وأما التشبه فقريب من التقليد إلا أن فيه تكلفًا وتعلمًا وتقصدًا. وغلب استعمال التقليد في الأقوال، وأما التشبه فقد غلب استعماله في الأفعال.

(١) انظر: التدايير الواقية من التشبه بالكفار، عثمان أحمد دوكلي ص ٣٤.

أسباب التقليد

أسباب التقليد يمكن إجمالها في مطالب أربعة، على النحو الآتي:

أولاً: الجهل:

عندما ينتشر الجهل، ينتشر التقليد؛ فيستقبل الجاهل ما يلقي إليه من عقائد فاسدة، وتشريعات ضالة. وقد حدثنا القرآن الكريم بأمور يكون الجهل فيها سبباً للتقليد، وهي:

١. الجهل بحقيقة التوحيد.

تحدث القرآن الكريم عن أناس جهلوا حقيقة الألوهية والربوبية، وحقيقة المنعم عليهم؛ فعبدوا غيره. فهاهم بنو إسرائيل يطلبون من موسى عليه السلام - وهم حديثو عهد بمعجزة فلق البحر، وإغراق فرعون وقومه على مرأى من أبصارهم - أن يجعل لهم إلهًا صنمًا، تقليدًا لعبدة الأصنام. فقال الله سبحانه مبينًا سبب تقليدهم الذي هو الجهل: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْؤُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: ١٣٨] فوصفهم الله بالجهل على أتم وجه، لأنهم جهلوا حقيقة التوحيد^(١).

وشبيهة بذلك ما طلبه جهال الأعراب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط كما للكفار. فقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين. قال: (وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة. قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَمْؤُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٢) إنها لسنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة^(٣)).

كذلك وجدنا كفار مكة يطلبون من نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم، التي هرعوا في عبادتها مستئين بأبائهم دون علم، فكان الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين ردًا فيه الشدة والوصف بالجهل.

فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ فَلَا حَسْرَةَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَحْزَنُ ﴿٦٤﴾ [الزمر: ٦٤]. فكان جهلهم بالله تعالى، وفساد جهلهم بعبادة الأصنام يضاهي جهل بني إسرائيل.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/٢٢٥، رقم ٢١٨٩٧.

وصححه الألباني في ظلال الجنة، ١/٣١، رقم ٧٦.

(١) انظر: روح المعاني، الأوسى، ٤١/٩، المنار، محمد رشيد رضا، ٩/١١٠-١١١.

والحق^(٢). واليوم نرى من سرى إليه تقليد السابقين في التمسح بالقبور وتقديسها من جهلة الأمة.

وبلغ من جهل الكفار أن اختلقوا لله تعالى بنين وبنات بغير علم منهم، فنسبوا إليه الولد، فكان من جهلهم أن نسبت اليهود عزيزاً إلى الله، وكان مثلهم النصارى في قولهم المسيح ابن الله، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠].

ويشبههم الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقال الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ولقد وجد في البشرية قديماً وحديثاً من علية القوم من يستخف بعقول الدهماء، طالباً منهم عبادته من دون الله، وهذا من جهله بحقيقة ربه عز وجل، بل ومن جهله بحقيقة نفسه.

فقد قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيْرِيْنَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

فالطغاة يعزلون الجماهير عن كل

وها نحن نرى اليوم عبادة المادة من دون الله تعالى من قبل بعض أبناء الأمة استجابة لطلب الغرب الذي صارت المادة في حياة غالبية أهله كل شيء.

ووجد في البشرية من صفته الجهل بحقيقة العبادة ومدلولها ومستحقها، فافتتن بالقبور والأضرحة فعبدها تقليداً لأبائه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطفان بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت»^(١).

فهي لم تعبد إلا بعد هلاك الصالحين ونسخ العلم وانتشار الجهل.

والأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل ويندس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون؛ فإن التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة تتسلل إليهم، ويتعدون عن ضياء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَدًا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، ٦/ ٧٣، رقم ٤٩٢٠.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية، البوطي، ٤٧-٤٨.

الأقوام بحقيقة النبوة فوصف الله جهلهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ [البقرة: ١١٨].

فبنو إسرائيل اشترطوا -لجهلهم- على موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة كي يؤمنوا، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

ومثلهم كان مشركو مكة في الجهل وطلب الخوارق، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

ولما جهلت عليّة الأقوام ميزان الله تعالى في التفاضل بين الناس وهو التقوى؛ أنفت أنفسهم الجلوس مع ضعفاء المؤمنين كبيراً، فطلبوا من الأنبياء عليهم السلام الانفصال في المجلس عنهم. فقال الله سبحانه عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَيَقُولُ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَبِئْتُمْ بِهِمْ يُفْسِدُونَ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ وَالْأَنْفُسُ هَاهُنَا لَمَّا لَمْ يَنْصُرُوا قَوْمَهُمْ لِيَخْرُجُوا مِنْهَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٢٩].

وتبع قوم نوح صنديد مكة حينما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن

سبل المعرفة، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة؛ وبهذا يسهل استخفافهم، ويلين قيادهم، فيقودونهم ذات اليمين وذات الشمال وهم مطمئنون^(١).

إن الذي لا يستقيم على طريق، ولا يمسك بحبل الله، ولا يزن بميزان الله، هو الجاهل بهذا الطريق، فجهله كان سبباً في سهولة انقياده لمن استجهله. والناظر في زماننا اليوم، يرى الأمر جلياً في سلوك الكثيرين. فلقد جهلت الأمة حقائق كثيرة عن الله عز وجل، منها حقيقة أن الرزق بيد الله وحده، فصاروا طوعاً في يد المستكبرين؛ فذلوا أنفسهم بطاعة من أقرضهم من الغرب الذي في غالبته كفر، وأذلوا شعوبهم بأن مارسوا عليهم عقيدة غير المسلمين وثقافتهم، ظناً منهم أنه من خلالهم يكون الرزق، وأنهم لو تركوا طاعتهم ما طعموا وما شربوا!!!

٢. الجهل بحقيقة النبوة.

إن الأقوام الكافرة جهلت رسالة النبي المبعوث بها، وأنه مكلف بالبلاغ وليس الإتيان بالعذاب، فأخذت الأقوام تطلب من أنبيائها أن تأتيها بالعذاب والمعجزات، ولم يكن هذا من أجل الاهتداء، بل عناداً. وهذا الأمر تكرر على مر القرون، بسبب جهل

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣١٩٤/٥.

وقلة علمهم وجهلوا حقيقة الكون، ذهبوا ينازعون الله هذا الحق وأخذوا يشرعون ما لم يأذن به الله. فالنزاع بين الرسل والدعاة من جهة، وأقوامهم من جهة أخرى، لم يكن -في الأغلب الأعم- حول قضية الربوبية، فأهل الكفر يعترفون لله بالربوبية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝١﴾ [الزخرف: ٩].

ولكنه كان حول من تكون له السلطة والحاكمية. فوجدنا حكم الطاغوت وتشريعاته، ينازع حكم الله تعالى دائماً. وأراد بعض الصحابة رضي الله عنه أن يحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله من نساء وطعام ونوم^(١)، تقليداً لرهبانية النصارى، ظناً منهم أن ذلك فيه زيادة قربي إلى الله تعالى، فكان قول الله تعالى ناهياً إياهم عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا مَا حَلَّلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾ [المائدة: ٨٧].

فسمى الله تعالى تحريم ما أحل اعتداءً، فهو اعتداء من حيث جعل النفس هي المشرعة من دون الله، وتحرم ما يصلحها، وتحل ما يفسدها، وهذا لا يكون إلا من جاهل.

واليوم جهل كثير من المسلمين من له

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص ٢٠٦.

يجعل لهم مجلساً سوى مجلس الضعفاء الداعين ربهم غدواً وعشياً. فجاء التوجيه الرباني للرسول صلى الله عليه وسلم في رفض الطلب: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَيْثِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢].

٣. الجهل بحقيقة التشريع.

والقرآن الكريم لا يصم المقلد بالجهل فقط، بل ويصم المتبوع كذلك. فمن حيث التشريع وجدنا القرآن الكريم ينعى على المقلد الذي يتبع آباءه الذين شرعوا له ما لم يأذن به الله، هؤلاء الآباء الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآية سبقتها آيتان تتحدثان عن حق الله في التشريع الذي يجب أن يطبق لا أن ينازع.

إن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق؛ ومن حقه وهو يعلم من خلق، ويعلم ما يصلح الخلق ويفسده أن يضع التشريع الذي يصلح خلقه ولا يفسدهم. ولما جهل الكفار حقيقة علم الله، وجهلوا حقيقة أنفسهم

الحق في التشريع؛ فقصروا فهمهم للإسلام على عبادات تقام، ويستفتونه في لباس أو شراب أو نكاح، أما النظم العامة، فلم يعد الاستفتاء فيها للإسلام، بل للدساتير الوضعية.

والجهل من أسباب الارتداء في أحضان الحضارة الغربية، فمن فسد تصوره عن الإسلام وأحكامه، وتاريخه ومدنيته وحضارته، لا بد أن يتأثر بكل غزو فكري، وينقاد لكل فكرة لا أخلاقية لأنه فارغ العقيدة والعلم^(١).

وهذا ماثل في حياة المسلمين اليوم، ففي تقليد الحياة الاجتماعية حينما سفهت المرأة أمر دينها خرجت عارية متبرجة تبرج الجاهلية الأولى، الذي ينهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ نَبِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي جاهلية المجال الاقتصادي، نجد الكثير من المسلمين يتعاملون بالربا، والاستغلال تقليدًا للفكر الرأسمالي الغربي. وفي مجال الحكم، قلد من بيده مقاليد المسلمين الغرب في تطبيق التشريع العلماني، متخذين تشريع الله وراءهم ظهريًا. وهذا كله لجهلهم بحقيقة تشريع الله النافع الصالح، ولجهلهم بحقيقة التشريع

(١) انظر: الشباب المسلم في مواجهة التحديات، عبد الله علوان، ص ١٩٥، التقليد والتبعية، ناصر العقل، ص ١١١-١١٣.

الوضعي الضار.

ثانيًا: اتباع الهوى:

اتباع الهوى مذموم في كتاب الله تعالى، ويكون في أمور أهمها:

١. اتباع الهوى في الشبهات.

اتباع الهوى يكون في شبهات كثيرة منها: شبهة الغلو والشرك، والحكم بغير ما أنزل الله، واستبدال التشريع الرباني بالتشريع الوضعي.

أما اتباع الهوى في شبهة الغلو، فقد نهى الله تعالى أهل الكتاب عن اتباع أسلافهم في الغلو في عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [٧]

[المائدة: ٧٧].

وجاءت الشبهة من أن الذين عبدوا مع الله غيره، كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى^(٢).

وقريب من غلو النصارى في عيسى عليه السلام تبعًا لأهواء من ضل قبلهم وأضل، وجدنا كذلك متبعي الأهواء من كفار مكة قلدوا آباءهم في عبادة الأصنام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩٧/٢٣.

هؤلاء الجاهلون في عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة، إلا الظنون الكاذبة، وإلا ما تشبهه أنفسهم الأمانة بالسوء، وتقليد للأباء بدون تفكير أو تدبير»^(٢).

ووجد في المسلمين فرق غالت في الرجال والعقائد اتباعاً لهواها -مضاهاة لليهود والنصارى- ومنها بعض الشيعة الذين غلوا في آل البيت والحسن والحسين والأئمة، حتى رفعوهم إلى درجة النبوة، بل ومنهم من رفع الأئمة فوق مرتبة النبوة. وكما كان اتباع الهوى في شبهة العقائد، كذلك كان في شبهة التشريع.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ آلَا تُكَلِّمُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُحِذِرُونَ بِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ كَمَا يَعْلَمُونَ بِالْمُحْتَدِينَ﴾^(٣) [الأنعام: ١١٩].

وشبهة الكفار في تحليل الميتة أن ما ذبح الإنسان فحلال، وما قتل الله فحرام، فهل الإنسان أحسن من الله؟! فلا بد من تحليل ما قتل الله (الميتة) بزعمهم^(٣).

وكان من تشريع كفار مكة تلاعبهم في الأشهر الحرم، كما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا

﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى ﴿٢٠﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ الذِّكْرُ وَكَلِمَةُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿النجم: ١٩-٢٣﴾.

وصاحب الهوى متقلب في عبادته، واختيار معبوده، فينتقل بين معبوداته حسب هواه. يروي الطبري عن سعيد قال: «كانت قريش تعبد العزى، وهو حجر أبيض، حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]»^(١).

واتباع الهوى سبب في الصد عن اتباع الحق، فالله عز وجل خاطب موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ السَّكَانَةَ أَيْبَةُ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

وخاطب نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم مبيناً تشابه كفار مكة مع قوم موسى عليه السلام في ترك الحق اتباعاً لأهوائهم فقال الله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص: ٥٠].

يقول صاحب التفسير الوسيط: «ما يتبع

(٢) الوسيط، طنطاوي، ٧٠/١٤.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨٠/١٢.

(١) جامع البيان، الطبري، ٧٦/٢٢.

يُؤَاطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴿التوبة: ٣٧﴾^(١).

وكانت العرب تمتنع من الغارات في هذه الأشهر. فلما كان ترك القتال يطول هذه المدة- ثلاثة أشهر متتالية- أخذوا يحلون هذه الأشهر ويحرمون بدلاً منها غيرها. وهذا التحليل والتحریم كان تبعاً لأهوائهم. وهذا الفعل لكفار مكة، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، يشابه فعل اليهود من قبل في التبديل والتحریف.

فقد قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتِكُمْ فَاذْهَبُوا﴾ [المائدة: ٤١].

فقد غيروا حكم الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتحميم، وهذا تبعاً لهوى أنفسهم التي كبر عليها رجم عليه القوم إذا زنوا.

ولقد خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم محذراً إياه من اتباع أهواء اليهود وأن يحكم لأشرافهم على خصومهم بغير حق: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والتحذير الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم، تحذير لأمته. واليوم نرى تبديل (١) والأشهر الحرم التي حرمها الله تعالى أربعة: ثلاث سرد، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وواحد فرد؛ وهو رجب.

حكم الله تعالى في عالمنا الإسلامي، فتشابه حكام المسلمين باليهود والغرب العلماني في تعطيل حكم الله تعالى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ كي لا يتهموا بالرجعية. فالحدود معطلة، إذ السارق من ضعفاء القوم له السجن بدل قطع اليد. والزانيان بالرضا لا عقوبة عليهما. وشارب الخمر لا جلد عليه. والقصاص معطل، فالقاتل عمداً يسجن، ويقتل غيره من أقربائه ثأراً، كما هو الحال في الجاهلية الأولى. والقانون يحكم به على الضعيف دون الشريف.

٢. اتباع الهوى في الشهوات.

بين الله تعالى في كتابه العزيز حب الناس للشهوات، فقال سبحانه: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن الناس من يحبها حباً جمّاً، ويتبع هواه في حبها لدرجة هلاكه من حيث لا يشعر، فيعنيه حبها عن اتباع الحق، وتكون له إلهاً يعبد.

يقول ابن تيمية: « فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى إما للعادة والنسب كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين، فهذا مثل تقليد

إسرائيل وفي فرعون وجنوده. والأمر ذاته نجده ماثلاً في أبي جهل، الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ اللَّهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدث في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له: مه! وما ذلك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تم عقله وكمل رشده، نسميه الكاذب الخائن!! والله إني لأعلم أنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به! قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبداً. فنزلت ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ مَعْبُودِهِ وَقَلْبِهِ﴾ (٢).

فأبو جهل أيقن أن محمداً صلى الله عليه وسلم على الحق، إلا أنه كذبه اتباعاً لهواه، وصدّاً عن سبيل الله تعالى كبرياء من نفسه، وبقي بهذا مقلداً لدين آبائه. واليوم نرى هذا الأمر ماثلاً في كثير من أهل الكبرياء استنكافاً عن الحق، واتباعاً لما سبق.

• اتباع الهوى في العمل بخلاف ما يعلم. علم الله تعالى الإنسان ما لم يعلم، والأصل في الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة بأن يؤدي حق الله فيها، إلا

الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه» (١). ووجدنا آيات كثيرة تتحدث عن اتباع الهوى في كثير من الشهوات منها: • اتباع الهوى بسبب الكبرياء.

إن خلق الكبرياء، خلق يعمي عن اتباع الصراط المستقيم ومن اتبع هواه في هذا الخلق واستكبر، وجد نفسه معانداً للحق، صادّاً عن سبيل الله تعالى. ولقد وجد هذا الأمر في الأمم والأفراد، فقال الله سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فبنوا إسرائيل استكبروا عن سماع الحق واتباع الرسل، فقتلوا فريقاً منهم وكذبوا فريقاً. وفعلهم هذا مثل فعل فرعون وقومه حينما أنكروا الحق ظلماً وعلواً.

إذ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقْبَلَتْنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فأنفسهم أيقنت الحق، ولكنهم رفضوه تكبراً، وفرعون استكبر عن الحق تبعاً لهوى نفسه في جعلها إلهاً من دون الله، وقومه اتبعوه عبادة له من دون الله تعالى.

فصدق قول الله عز وجل فيهم: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا هُوَ وَجَحُّودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَكْبَرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

فكانت صفة الاستكبار ماثلة في بني

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١٣/١٦.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٦/٢٠.

الحالة المكرورة من قلب للحقيقة، فيصبح الأمين خائنًا، والخائن أمينًا، والمصلح مفسدًا، والمفسد مصلحًا، والمجاهد إرهابيًا لا يستحق الحياة، ولا بد من محاصرته ومطاردته ونفيه من الأرض. فتصنف الناس حسب الأهواء والأمزجة. تشابهت القلوب، فحاكت الأفعال بعضها بعضًا.

ثالثًا: الخوف والاستضعاف:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بالعقل والإرادة. وحينما يتنازل عن هذا التكريم الإلهي، فإنه يصبح موبوءًا بوباء التبعية، ويسلم قياد نفسه لغيره، ويعطل عقله، ويسيطر الخوف والضعف عليه. ومن هنا نجده يمثل أمر سيده، ويجتنب نهيهِ، تاركًا كتاب ربه وراءه ظهريًا، ومعرضًا عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حجته في ذلك: ﴿تَخَشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، أو ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ومن خلال ذلك سيكون تحت هذا المطلب أمران هما:

١. الخوف.

يعرف الخوف بأنه «توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»^(١).

والخوف جبلي- وهو ما كان مفظورًا عليه المرء- لا مؤاخذه فيه، وأما النفعي،

إرشاد العباد لخالفهم هو المفسد! بل وعد نفسه أنه الهادي قومه إلى الرشاد، الآتي لهم بشرع رشيد.

قال الله سبحانه عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتكرر الأمر من قوم لوط، حينما نظروا إلى من ترفع عن الفاحشة وتنزه عنها، بأنه لا يستحق مجاورة ولا مساكنة، فهم الجديرون للأرض والوطن، وغيرهم ممن لا يفعل فعلهم ليس له إلا الطرد والنفي!

فقال سبحانه عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

كذلك نجده هذا الأمر من أهل مكة الذين شاركوا فرعون وقوم لوط في قلب الحقائق تلبية لرغباتهم وشهواتهم، حينما حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم لأنه عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، واتهموه بالسحر والكذب والكهانة، وأنه أفسد بين الولد ووالده، وفرق بين المرء وزوجه، فلا بد من سجنه أو قتله أو طرده، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثَبِّرُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وتتوالى السنون والأيام، وتمشي معها

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ١٣٧.

بكلمة إلى كما في قوله الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

دليل على أنهم غارقون في التقليد والتبعية، وهذا ينم عن نفسية مريضة، فهم يهرعون في نصره العدو ونقل أخبار المسلمين إليه. وفي هذا دليل على عميق مرض أنفسهم، وعدم ثقتهم بوعد الله بالنصر. فلما كانت النفس بهذا السوء والهزيمة؛ سهل انقيادها لليهود والنصارى وأشباعهم، وعملت -وهي راضية- ما تطلبه يهود في مطاردة الإسلام وأهله، ونشر الفساد والإلحاد، وحمايته بالأموال والأنفس؛ فالأمر مائل للعيان في هذا الزمان مشابهاً لابن سلول. وحيثما وجدت نفس بهذا المرض، كانت مقلدة ذائبة في غيرها. وهذا في كل زمان.

والمخاطب بالرؤية معروف وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من يصلح للخطاب من أمته. والفعل (تري) مضارع يدل على الاستمرارية، وهذا يعني أن المسألة تتكرر في كل زمان، ولم يكن الحديث مع غائب، ولعل ذلك -والله أعلم- من باب أهمية المؤمن المخاطب، وحظه عند الله تعالى، وتحذيره من أن يصيبه ما أصاب المسارعين فيهم.

وكما أن الخوف من الدائرة، سبب

فهو الذي يجلبه المرء لنفسه نتيجة ضعفها. والخوف النفعي قد يكون خوفاً من قوة متوقعة، وخوفاً على المال أو المنصب. وهذا كان سبباً في تقليد الكافرين ومتابعتهم، والإعراض عن سبيل المؤمنين.

يقول الله عز وجل: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

نزلت هذه الآية في المنافقين - وعلى رأسهم ابن سلول - الذين والوا اليهود^(١)، وعملوا بأعمالهم مقلدين إياهم في الصد عن دين الله. ويحملهم على ذلك؛ خوفهم أن يهزم المسلمون، فتكون لهم يد عند من يوالونهم، يحفظون بها أنفسهم «ولكن حجة ابن سلول، هي حجة كل ابن سلول على مدار الزمان؛ وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب لا يدرك حقيقة الإيمان»^(٢).

وتتكرر صورة ابن سلول وأعوانه اليوم في خشيتهم من اليهود، ومسارعتهم في المحافظة على كيانهم وأمنهم، قائلين: ﴿نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ فالمسارعة في خدمة يهود، والبحث عن رضاهم، ديدن المنافقين في هذه الأمة قديماً وحديثاً، محتسبين أن كل صيحة عليهم.

وتعدية المسارعة بكلمة (في) وليس

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ١٩٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٩١٦/٢.

الوظيفة!! سبحان الله العظيم تشابهت القلوب مع قلوب قريش، ﴿إِنْ نَبَّحَ الْمَدَى﴾ فاعترف الفريقان بأن ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم والدعاة في كل زمان هو الهدى، لكنهم أعرضوا عن اتباعه، وبقوا على دين كبرائهم خوفاً، فحالهم كحال فرعون وجنده: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفْتِنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَطُغْيًا﴾ [النمل: ١٤].

ولقد برر القوم عدم تبعيتهم لشرع الله بكلمة ﴿نَخَطَفَ﴾ الدالة على الأخذ بسرعة^(١). دلالة على شدة الهلع والخوف من الناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا آتِيَةٌ فَهُمْ صَالِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْغَوْنَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

والإهراع: «إسراع فيه شبه بالرعدة»^(٢). فالإسراع الشديد في التقليد والتبعية ثمرة الخوف الشديد. وهذه الحالة النفسية التي يصفها القرآن العظيم للمقلدين، تدل على ذوبان شخصية صاحبها في المتبوعين، وخوفها منهم.

٢. الاستضعاف. وصف الله سبحانه وتعالى حالة الضعف كحالة تعتري النفس البشرية، تؤدي إلى الانقياد والتبعية للآخر المستكبر، فقال: ﴿فَقَالَ أَضْعَفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

تقليد، كان الخوف على المصالح المادية أيضاً، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَّحَ الْمَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]. وهذا كان من أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم، رغم أن الله جعل لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء. وشابه ذلك أهل زماننا، فكم من دولة عربية وإسلامية تتبع أوروبا وأمريكا، خوفاً على مصالحها الاقتصادية، أو حباً في تخفيف الديون المتركمة عليها، أو خوفاً من ضربة عسكرية، رغم ما أنعم الله عليهم ما لم ينعم به على غيرهم من طاقات بشرية وإمكانات اقتصادية.

ولئن كان الخوف من التخطف - إن اتبع الدين - هو شأن عليا القوم، فقد وجدنا العامة من الناس، تلوك ألسنتهم الفكرة نفسها، فلکم تشفت الأذان من ثقافة المجتمع المستضعف الخائف من البغي السلطاني، أو عدم الحصول على وظيفة، إن عمل لدينه حق العمل بشموله، أو جاهد نصرة له، محارباً الظلم وأهله، ذاباً عن شرع الله تعالى، ومطالباً بتحكيمة كاملاً غير منقوص. فسبحانك ربي، ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

فالحالة ذاتها على مر الأجيال. ولئن سألتهم عن قناعتهم بهذه الفعال لقالوا: لسنا على قناعة بذلك ولكنها

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١١٨.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٤٧.

لَكُمْ تَبَعًا فَمَا تَبِعُوا تَبَعًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِنْ شَرِّهِ [إبراهيم: ٢١].

والضعفاء هم الذين تنازلوا عن كرامتهم
وحريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد،
وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين الطغاة.
والقوة المادية - مهما كانت - لا تملك إلا
تعذيب الجسد، أما العقل والروح فلا يملك
أحد حبسها إلا إذا أسلمها صاحبها للحبس
والإذلال، فحينما ضعفت الأرواح والعقول
سقطت هماتهم، واتبعوا المستكبرين^(١).

والضعاف هم الذين فقدوا صناعة
القرار الذاتي، فأصبحوا مصنوعين لا
صانعين، مقودين لا قادة. وهم الذين ذابت
شخصياتهم فذاب قرارها الخاص بها في
غيرها، ومن هان على نفسه، هان على
الناس. فالضعفاء يقولون للمستكبرين:
﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، «أي: مهما أمرتمونا
اتمروا وفعلنا»^(٢)، بل هم سادة في
التطبيق والامتثال من فرط ضعفهم وذلهم
وعبوديتهم، فهم: «لشدة تبعيتهم كأنهم عين
التبعية»^(٣).

لقد قلد الضعفاء الكبراء في أنواع
الضلالات المختلفة، فلما كذب
المستكبرون الأنبياء، كذلك كان الضعفاء،
ولما كان المستكبرون معذبين للرسل
(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢٠٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/٤٥٤.

(٣) روح المعاني، الألويسي، ٧٤/٢٤.

عليهم السلام كان الضعفاء جلادين لديهم،
منقادين للأمر دون تفكير.

والله تعالى لم يقبل عذر المستضعف،
إذا كان قادرًا على الانتفاضة على ضعفه
وذله، تاركًا تبعية كبيره، بل وحتى تكثير
سواده - إذا لم يكن في الانتفاضة منكر أكبر
من منكر الضعف والذلة -. يقول المولى عز
وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ
قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا
أَلَمْ تَكُنْ أَزْوَاجًا نِسَاءً اللَّهُ وَسِعَ فَنَهَارُهَا فِيهَا فَأَوْلِيَّتِكَ
مَا وَدَّعْتُمْ جِهَتَهُمْ وَسَاءَ تَبَعًا مَصِيرًا ﴿١٧﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد عبر القرآن الكريم عن المستضعفين
بصيغة الفعل المبني للمجهول (استضعفوا)،
لهوانهم على الله كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ
لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

وفي التعبير بصيغة المبني للمجهول
دلالة على شدة مهانتهم لأنفسهم وعدم
تقديرهم لكرامتها، فأذلوها مقلدين الذين
استكبروا. وفي المقابل كان التعبير عن
المستكبرين بصيغة المبني للمعلوم، لإظهار
تفننهم في قيادة المستضعفين بالليل والنهار.
فهم وجدوا قطيعًا ينفذ، فلماذا لا يأمرؤن!
ووجدوا ضعفًا سهل انقياده، فلماذا لا
يتكبرون! والكبر شعارهم، «والسين والتاء

غلبه، لاعتقاد الكمال في الغالب، فتجده يشبه بالغالب في زيه ومركبه وسلاحه.^(٣) والمتأمل في المجموعات الإنسانية، يرى أن نسبة عظمى منها تضعف إرادتها وتنحني أمام إرادة ذوي السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الروحية، وحينها تعطل ملكاتهم فيكونوا إمعة. ويستغل القادة صفة الطاعة العمياء هذه لبت أفكارهم وعقائدهم التي فيها تمكين نفوذهم، وتسخيرهم لتحقيق ما تشتهي أنفسهم الأئمة من سلطان أو مال.^(٤)

رابعاً: تعظيم الأنبياء والأولياء:

يخرج في كل أمة أشخاص بارزون لهم بصمات في تاريخها، فمنهم من يبرز في ميدان العبادة، ومنهم من يبرز في ميدان المعارك، ومنهم من يبرز في ميدان العلم، ومنهم من يبرز في ميدان القيادة. وهذه الفئة من كل أمة يكون لها وزنها في أنفس الجماهير. ولما كان قول أهل النباهة له مكانة في الأنفس، فإن العامة تقول بقولهم، وتعمل عملهم. يقول القرطبي: «وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها»^(٥).

للمبالغة في الكبر»^(١). وذلك أن المتكبر سعى في طلب الكبر.

ويبين يوسف العظم أن أعمق معاني الهزيمة تلك التي تنبع من داخل الإنسان، ولا يشعر بها، لأنه مخدر الذهن بحيا أجواء الغرور، ولا يفسح لغيره حواراً^(٢).

وهذا مائل تماماً في حاضر أمة الإسلام اليوم، فقد انهزمت من داخلها، ولم تعد تعرف سر قوتها، وسر ضعف غيرها، فانبهرت بحضارة غيرها واتبعتها.

وقرب من هذا -الهزيمة النفسية التي كانت سبباً في التقليد- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَتُلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبمجرد دعاء الشيطان استجابوا، وهذا دليل الخواء الروحي، والضعف العقلي، والفراغ الذاتي، أن لبوا نداء الشيطان في الضلال والإغواء، بمجرد الدعوة، كما هو شأن كل متبعي الشيطان في كل زمان.

والمغلوب مولع دائماً بالافتداء بمن

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٧.

(٤) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، الميداني، ص ٦٩٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٨٥.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١٦/١٣.

(٢) انظر: المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة، يوسف العظم، ص ١٩.

يقول محمد سيد الطنطاوي: «وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب (ابن الله)»^(١). فعزير عظم عند اليهود، لما له من شأن في حفظ التوراة، في الوقت العصيب الذي ذهبت منهم هذه التوراة.

أما بالنسبة لعيسى عليه السلام، فقد أخبر الله تعالى عن فرية النصارى حين قالوا عنه بأنه ابن الله، وذلك لأنهم رأوا على يديه من المعجزات التي لا تصدر إلا عن إله، أو لأنه ولد لغير أب. فمن هنا، كان تعظيمهم له.

ولقد غالت النصارى في المسيح عليه السلام، وأطروه إطرًا تجاوزوا به الحد، فقال الله سبحانه وتعالى ناهيًا إياهم عن الغلو فيه: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ لَا تَمَلُّوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

والآية تنهى عن رفع عيسى عليه السلام من مقام النبوة إلى مقام الألوهية، فسلفهم ضل في هذه الفرية وأضل من بعده.

وبين الله تعالى كفر النصارى في عقيدة التأليه والتثليث لعيسى عليه السلام فقال

فالنبيه تتبعه العامة، ويقلدونه في القول والعمل. ويكون الناس معهم أصناف ثلاثة: الصنف الأول: الغالي فيهم، المعظم لهم لدرجة العبادة.

الصنف الثاني: الجافي عنهم، إما جاهلًا بهم، أو حاسدًا لهم.

الصنف الثالث: الوسط بين الصنفين السابقين، ويتعامل مع هذه الفئة البارزة دون إفراط ولا تفريط.

وهذا المطلب سيدور حول الصنف الأول دون الثاني الذي لا يكون فيه تقليد، بسبب جهلهم الذي لا يدفعه إلى التقليد، أو حسده الذي يسبب معاداتهم والتي تمنع التقليد من الناس، وذلك في أمرين:

١. المبالغة في تعظيم الأنبياء عليهم السلام.

لقد بين الله تعالى أن اليهود زعموا أن عزيرًا ابن الله، وكذلك بالنسبة للنصارى في عيسى عليه السلام، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

فعزير، مختلف فيه أنبي هو أم عالم من علماء بني اسرائيل؟ وأيًّا كان الأمر، فالذي يهم هنا أنه قدس، بزعمهم أنه ابن الله زورًا وكذبًا.

(١) الوسيط، طنطاوي، ٦/ ٢٥٧.

فمن أهل التصوف من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس له وما هو بريء منه، فاعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الله المستوي على العرش، وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وإنه أول موجود؛ وهذه عقيدة ابن عربي (٣).

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه حينما أراد السجود له، تقليداً لنصارى الشام في السجود لأساقفتهم، وبين أن هذا لا ينبغي إلا لله وحده (٤).

خامساً: تعظيم الأولياء:

بشر الله تعالى أولياءه الصالحين بألا يخافوا ولا يحزنوا فقال: ﴿الْآيَاتُ آيَاتٌ ۚ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

و«أولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة» (٥)، وهم الأقرب إلى الله تعالى، والأكثر طاعة له، وخشية منه.

عبدالله، ص ٢٧٣، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان، ١/٦٢.
(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١١٥٧/٢.
(٤) انظر: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، ١/٥٩٥، رقم ١٨٥٣.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/١٤٤.

سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِسِرِّي وَيَلْعَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۗ﴾ [لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله وحده] [المائدة: ٧٢-٧٣].

فهاتان الآيتان تظهران كفر من اعتقد هذه العقيدة. وفيهما تحذير لأهل مكة التي ضامى مشركوها اليهود والنصارى، حين خرقوا لله بنين وبنات بغير علم، وجعلوا الملائكة -الذين هم عباد الرحمن- بنات الله، وكذلك فيهما تحذير للمسلمين من أن يغلو في نبيهم صلى الله عليه وسلم، مشابهة لليهود والنصارى في العزير وعيسى، والذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً حينما قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله) (١).

ومع هذا التحذير والإرشاد، إلا أنه وجد في الأمة من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض صفات الألوهية، كالتضرع إليه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب (٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ آهْلِهَا﴾، ٤/١٦٧، رقم ٣٤٤٥.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن

﴿تَبَّرَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٩١﴾
[طه: ٩٠-٩١].

فكان الرد الذي فيه الغلظة وينم عن شدة التقليد: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٩١﴾ [طه: ٩١].

وكلمة (لن) نفي فيه الشدة والتأييد، وفيه دلالة على أنهم أشربوا حب العجل حتى أعماهم عن التأدب مع نبي الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وكلمة ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية، تبين مدى الحب لعبادة العجل، وتعمقه في قلوبهم.

أنفسهم في التقليد: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آيَاتَهُ تَاكُذًا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾. وكلمة ﴿بَلْ﴾ تظهر إضرابهم عن كلام إبراهيم عليه السلام، وعدم سماعهم له؛ لأن قضية تقليد الآباء أهم وأعظم عندهم. وهذا ينم عن تصميم، وقوة إرادة في أنفسهم لمسألة التقليد. فقولته: ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فيه دلالة واضحة على تقليدهم آباءهم في الفعل، فالكاف للتشبيه. فهم يفعلون كما فعل آباؤهم، ومن تعظيمهم لهذه الأصنام أنهم ظلوا لها عاكفين. وعاكفون من «عكف على الشيء يعكف ويعكف عكفاً عكوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه... لزم المكان»^(١)، فالعكوف من ملازمة الشيء.

وهذا من تعظيم الملائم للملائم. فهم عاكفون على عبادة الأصنام، منكبون على تعظيم من لا يستحق التعظيم، إظهاراً لما في أنفسهم من الابتهاج بهذه العبادة.

وكما عكف قوم إبراهيم عليه السلام على أصنام وتماثيل؛ تقليداً لأسلافهم واقتفاءً لآثارهم، فقد وجدنا هذا العكوف عند قوم موسى عليه السلام، لكن مع معبود آخر هو العجل، صنعه لهم السامري، وتكررت كلمة (العكوف)، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ﴿١٠١﴾ قَالُوا لَنْ

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٢٥٥/٩.

مجالات التقليد

أولاً: التقليد في العقيدة:

العقائد مسائل ثابتة، يجب الإيمان بها، ولا مجال للتلاعب فيها. إلا أن الأقوام حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، مبشرين ومنذرين، جابها أنبياءهم بالكفر والتكران، وحثتهم في ذلك: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ مَا نُنزِّلُ الْكُفْرَ مِن قَبْلِنَا وَإِنَّا لَنَعْلَمُ الْبُرْهَانَ مِنْ رَبِّنَا أَفَأَنزَلَ الْغُرَابَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونُ لَكُمْ بِهِ عَذَابٌ يُذَمَّرُ وَأَنزَلَ الْغُرَابَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونُ لَكُمْ بِهِ عَذَابٌ يُذَمَّرُ وَأَنزَلَ الْغُرَابَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونُ لَكُمْ بِهِ عَذَابٌ يُذَمَّرُ﴾ [الزخرف: ٢٢].

والتقليد في العقيدة تكرر من الأمم في موقفها من رسلها، وإنكار البعث، والاحتجاج بالقدر. ولوج هذا الجانب من التقليد العقائدي سيكون في مسائل ثلاث:

١. التقليد في موقف الأمم من الرسل والدعاة.

أرسل الله تعالى الرسل تترأ إلى الناس مبشرين ومنذرين، فمنهم من آمن، ومنهم من صد عن سبيله. والذين صدوا عن سبيله هم الأكثرية، وكانت لهم مواقف تجاه الرسل متكررة على مر الأجيال، ومن هذه المواقف: شبهة بشرية الرسل، وموقف التكذيب والاستهزاء بهم وبالدعاة. وسيكون الحديث عن هذين الموقفين.

الموقف الأول: شبهة بشرية الرسل. تكررت هذه الشبهة على لسان الأقوام

المكذبة للرسول عليهم السلام، ظناً منهم أن الرسالة لا تنبغي إلا لملك مقرب، والبشر أدنى من هذا المستوى، ولئن كانت هذه لبشر، فتنبغي أن تكون لرجل عظيم في المال والجاه.

وجاءت هذه الشبهة على لسان الأقوام في أكثر من آية، منها قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ مِّثْلُ نَبِيِّنَا أَفَتَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ أَفَتَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ أَفَتَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [التغابن: ٦].

فهذه الآية ذكرت اتهام الأقوام للرسول عليهم السلام بأنهم بشر، وهذا الكلام لمجموع الرسل (رسلهم)، وفيه بيان أن الأقوام توارثت هذه الشبهة، وتفوه بها اللاحقون تقليداً للسابقين.

فقد كانت حكاية هذه الشبهة على لسان الملائكة من قوم نوح عليه السلام حين دعاهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

فكان ردهم كما قال الله سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَدَّ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِ سَمَكٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَأْكُلَهُ مِن لَّدُنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا أَنبِئُكُمْ بِمَا كَانَ اللَّهُ يَفْعَلُ لِرُسُلِهِ وَلَئِن يَرَوْا آيَاتِنَا يَسْتَكْبِرُوا وَلَئِن يَأْتِيَهُمْ آيَاتُنَا لَيَقُولُنَّ حَرَابٌ مِّثْلُ مَا أَصَابَ الْبِلَادَ الْآخِرِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

والأمر نفسه يتبعه قوم عاد وثمود، فقال الله سبحانه مقولتهم: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَيِّبًا﴾ [الحجر: ٢١].

كُفِرُونَ ﴿١٤﴾ [فصلت: ١٤].

رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿الأعراف: ٦٣﴾.

وكذلك جاء هذا العجب من قوم عاد وبنص الآية السابقة نفسها^(١)، «فإنكار رسالة البشر عام في كل الأمم»^(٢).
الموقف الثاني: التكذيب والاستهزاء والطرده.

المجتمعات البشرية تكون على نمط معين من الحياة، فيها كبراء يقودون رعية هي لهم تبع، فإذا كانت هذه المجتمعات ظالمة منحرفة عن عقيدة التوحيد، أرسل الله إليها الرسل مبشرين ومنذرين، وتكون هذه الرسالة تحريراً للضعفاء من التبعية العمياء للكبراء، وهداية الجميع لله وحده. وهذه الرسالة الجديدة تجد الاستجابة من الضعفاء، والصد والعنت -عادة- من الكبراء، وحثتهم أن الرسل وأتباعهم ليسوا من علية القوم وملتهم، بل هم من الضعفاء. وعند توالي تبعية المستضعفين للرسل والدعاة، يستشعر الكبراء الخطر في ضياع نفوذهم، وذهاب طاعة المستضعفين لهم، فيبدأ هؤلاء الكبراء بإثارة الشبهات حول الرسالة الجديدة لهدمها، فيكذبونها ويستهزؤون بها. وحينما لا تفلح حجتهم أمام حجة دين الله تعالى يلجئون إلى القوة والبطش وطرده الرسل والدعاة. وهذا الأمر

وتتوالى الأمم في إنكارها لبشرية الرسل عليهم السلام، حتى يصل الأمر لقوم فرعون فيخبر الله تعالى عنهم استنكارهم لبشرية موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

كذلك قوم شعيب عليه السلام يتابعون غيرهم في هذه الشبهة، فيقول الله عنهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٦].

وكذلك يقولها أهل أنطاكية لرسولهم الثلاثة الذين أرسلهم إليهم عيسى عليه السلام: ﴿قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

وتستمر البشرية في التواصي على هذه الشبهة، حتى يأتي أهل مكة فيكرروها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ [يونس: ٢].

وهذا العجب الذي حصل من أهل مكة في بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم سبقهم إليه قوم نوح إذ قال الله تعالى عن ذلك: ﴿أَوْحَيْنَا أَنْ جَاءَ كُرْدٌ ذَكَرْنَا مِنْ رَبِّكَ عَلَيَّ

(١) الأعراف: ٦٩.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤٠/٢.

ديدن الكافرين قديماً وحديثاً، كما أخبرنا القرآن العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠-١١].

يقول ابن عاشور: ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدل على تكرار ذلك منهم، وأنه سته، (فكان) دلت على أنه سحوية لهم، والمضارع دل على تكرره منهم^(١).

وكذلك بين الله تعالى أن اتهام الرسل عليهم السلام بالسحر أو الجنون ديدن الأقسام الكافرة، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ جَحْنُونَ ﴿٥٢﴾ أَنْوَأَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والآية تتحدث عن عموم الأقسام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان قولهم لرسولهم إلا أن قالوا: ساحر أو مجنون. وهذا ما قالته قريش لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوم نوح عليه السلام يتهمونه بالجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

والتهمة نفسها وجهت إلى سيدنا موسى عليه السلام من فرعون، حيث قال الله تعالى مقولته: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

وكذلك فعل كفار مكة مع محمد صلى الله عليه وسلم فوصفوه بالكذب والجنون في أكثر من موطن، فقال الله سبحانه عنهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

وكما كانت الأقسام تتوالى في الاستهزاء بالرسول عليهم السلام، كذلك كان الحال باتباع الرسل المؤمنين.

فقوم نوح عليه السلام اتهموا من آمن به بأنهم ليسوا من أهل العقل، وليس لهم رأي سديد، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا زَلْنَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِي الرُّأْيِ وَمَا زَيْنَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

وشابه ملاً قريش ملاً قوم نوح في ازدراء المؤمنين أتباع الرسل، فكان أغنياء مكة وكبرائها، إذا مروا على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا ضعفاء المسلمين كعمار وخباب وصهيب رضي الله عنهم، استهزؤوا بهم وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقونا إليه، وما خصهم الله به دوننا^(٢).

ومن مسلمي اليوم من يستهزئ بالملتزمين بشرح الله تعالى في أفلام فضائيات هابطة وجوالات محمولة. وهؤلاء

(١) التحرير والتنوير. ابن عاشور ٢٣/١٤.

(٢) وانظر: أضواء البيان، الشنيطي ٦/٢٩٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/٢٣٧.

قوم شعيب لشعيب عليه السلام ومن آمن معه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وكذلك من قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ﴾ [النمل: ٥٦] إلى أن جاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم فكانت المؤامرة التي أخبر الله تعالى عنها: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وتستمر المؤامرة ضد أتباع الرسل عليهم السلام، وضد الدعاة الصادقين المنادين بتطبيق شرع الله تعالى، والواقفين في وجه الظلم والاحتلال والاستعباد. فترى السجون في طول البلاد وعرضها للدعاة المخلصين الذين نادوا بتطبيق دستور الإسلام، حتى إنه من شدة البطش والتكيل كانت الهجرة القصرية إلى بلاد الكفر، هروبًا من بطش الظلمة في ديار المسلمين، إذ إنهم وجدوا بلاد الكفر أكثر أمنًا من بلادهم.

٢. التقليد في إنكار البعث.

اليوم الآخر يوم أخبرت به الرسل جميعًا وهو يدرك عقلاً، إن أحسن العقل التفكير. إلا أن من الناس من عطل عقله وأسلمه لغيره انقيادًا له وتبعية؛ ويات يتذرع بأن ما جاءت به الرسل، إن هو إلا أساطير الأولين.

يشبهون المنافقين في أخلاقهم وصفاتهم الذين قالوا في غزوة تبوك عن الصحابة: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء»، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعَذِّرُوا قَدْرَكُمْ بِعَدِيبِنَا﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].^(١)

ولما لم يجد التكذيب والاستهزاء نفعًا أمام المستمسكين بدينهم، الثابتين عليه، رفع أهل الكفر سقف المحاربة إلى التهديد والوعيد لرسل الله وأتباعهم بالإخراج من أوطانهم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

فهذه الآية جاءت بعد الحديث عن أقوام موسى ونوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله^(٢)، والآية تكلمت بلسان الجمع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾، وهذا يعني أن النفي والطرده من سنة الكافرين، فقلد اللاحقون السابقين.

وهذا النفي والإخراج كان تهديدًا من

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص ١٦٩.

(٢) انظر: سورة إبراهيم: ٩.

فقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَآدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣].

فأهل مكة قالوا مثل ما قال أسلافهم: أنه لا بعث بعد رميم العظام.

ومتكأ القوم في تكذيبهم للبعث، أنه وعد متكرر لأبائهم الأقدمين، فهم قالوا مثل ما قال أسلافهم، وكذبوا مثل ما كذب الأولون. والملاحظ أن (سورة المؤمنون) ذكرت قوم نوح، فقوم ثمود، فقومنا آخرين، فقوم موسى ثم ذكرت حكاية أهل مكة في إنكار البعث كما في الآيات السابقة.

ويبين الله تعالى أن قوم عاد ردوا على هود عليه السلام دعوته بالإيمان بالبعث، منكرين التعذيب لهم بعد الموت، عذرهم كما وصفهم الله تعالى بأن هذا خلق الأولين، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣].

إلى أن يقول عنهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨].

فقوم عاد يقتدون بمن سبقهم في إنكار البعث. وأشار القرآن الكريم إلى إنكار قوم موسى عليه السلام للأخرة، حين نهاه

الله عن اتباع من صد عنها كفرًا بها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

ويستبعد الكافر البعث؛ لأنه بزعمه مخالف للمعهود عنده. ويعبر عن ذلك بسؤال استنكاري، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَآدَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

وكذلك يستعظمه؛ لأن الله في ظنه المزعوم غير قادر عليه.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

وهم يتعجبون منه، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجِّبْ قَوْلَهُمْ أَوَآدَا كُنَّا تُرَابًا أَوْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: ٥].

ولك أن تتصور شدة العناد في إنكار البعث من أهل الكفر، حينما تعلم أن القرآن الكريم أورد آيات كثيرة إثباتًا لهذه العقيدة، أمام صلف الكفار، بل إن سورة كسورة الكهف ومريم وسبأ يكاد يكون موضوعها الأساس لإثبات البعث^(١).

(١) انظر: في ظلال القرآن. سيد قطب. ٢٢٩٩/٤، و٢٨٨٨/٥.

أن الله أعطاهم في الدنيا أموالاً وأولاداً، اعتقاداً منهم أن ذلك كرامة لهم من الله، فلئن رجعوا إلى يوم القيامة - على تقدير حصوله عندهم حسب اعتقادهم الفاسد - فسوف يكون لهم الحسنی، فهم يعتقدون أن الله سيؤتيهم يوم القيامة خيراً مما آتاهم في الدنيا - إن وجد حسب ظنهم - . وتكرر هذا الغرور في سورتي الكهف ومريم المتالتين في المصحف ترتيباً.

فقال الله سبحانه عن رجل من بني اسرائيل^(١): ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّودتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وتحدثت سورة مريم عن العاص بن وائل^(٢): ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

فكلاهما أنكر اليوم الآخر، وزعم أنه لو جاء يوم القيامة ليكونن لكل منهما خير مما أوتي في الدنيا. وانظر للتوكيدات في الآيتين: ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ و﴿لَأُوتِيَنَّكَ﴾، وهذا يدل على شدة الغرور والجهل.

٣. التقليد في الاحتجاج بالقدر.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وهذا من الأركان التي يساء فهمها، ويحمل

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥٤٠/٣.

(٢) انظر: صحيح مسلم، لمسلم، كتاب التوبة، باب في نزول ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾، رقم ٧١٦٤، ١٢٩/٨.

وفي العصر الحديث أطل علينا مكر شيوعي إلحادي لا يؤمن إلا بالمادة. فكل ما هو محسوس ومشاهد فهو موجود، أما غير ذلك من غيب غير مشاهد فلا إيمان به ألّبتة. وبناءً على ذلك فليس للكون نهاية ولا حدود، ولا يوم آخر! وهؤلاء القوم امتداد للماديين قديماً أعداء الرسل الذين تناولوا بالمادة وأنكروا البعث.

والذي يتولى كبر إنكار البعث هم المترفون، كما يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٣٤] وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥-٣٤].

فذكرت أنه ما من قرية أرسل الله إليها رسولاً، إلا كان من ضمن ما أنكره مترفوها: البعث ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾. وهذا يتابع فيه المترفون اللاحقون إخوانهم المترفين السابقين أيضاً، ويحاكونهم في ذلك. وقد ذكر الله سبحانه إنكار عموم المترفين للبعث حينما تحدث عن أصحاب الشمال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [٥٥] وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَيْسَتِ الْعَظِيمِ [٥٦] وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٥٥-٤٧].

ومن غرور المنكرين للبعث ظنهم

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

يقول ابن عاشور: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذبك هؤلاء. وهذا يدل على أن الذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ تكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم إذ دعاهم إلى الإقلاع عما يعتقدون، بحجة أن الله رضى لهم وشاء منهم مشيئة رضى، فكذلك الأمم قبلهم كذبوا ورسلم مستندين إلى هذه الشبهة^(٢).

فهم حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم كما فعل آباؤهم، وأرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي من عند الله! وكانت قبيلة من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا عدلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفتدي بهم ونستن بسنتهم، والله أمرنا به^(٣)، فأنكر الله عليهم ذلك وقال: ﴿وَإِذَا قُمُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

من التفسيرات ما لا يحتمل. وإساءة الفهم هذه قديمة جديدة، عايشها القدماء، وسأيرها المحدثون. ولقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم فهم الأقوام الخاطى لهذا الركن حينما كانوا يتعدرون بالقدر على فعل المنكر، لعبادة غير الله تعالى، وتحريم ما أحل الله من الحرث والأنعام، وكذلك التلاعب في كيفية اللباس عند الطواف.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥].

يقول المشركون: ما نعبد هذه الأصنام، ولا نحرم ما حرمنا من السوائب والبحائر، إلا بمشيئة الله ورضاه، ولولا ذلك لعاقبنا على ذلك. وهذا كما فعلت الأمم المشركة الذين استن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، وسلخوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آباؤهم الضلال. وهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين في تكذيب الأنبياء وفي دفع دعوتهم عن أنفسهم^(١).

كذلك بين الله تعالى احتجاج الأقوام المتعاقبة على فعل المعاصي بالقدر في سورة الأنعام حيث قال الله سبحانه:

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤٨/٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٣٧٨-٣٧٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/٢٠٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/١٨٤-١٨٥.

بمنزلة حركات الجماد لا قدرة له عليها، ولا اختيار، وكل ما خلقه الله فقد رضي به وأحبه، وهؤلاء أعرضوا عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، وتركوا الأعمال الصالحة والأخذ بالأسباب المنجية من عذاب الله تعالى، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ما ذكره الله عنهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] (٥).

ومن المسلمين من شاكل هؤلاء المحتجين بالقدر على المعاصي وترك الفرائض، فإن قلت لمسلم تارك لفريضة الصلاة: لم لا تصلي؟ رد مجيباً: الله قدر لي ذلك، وعندما يهديني ساصلي، فيا سبحان الله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ [مريم: ٧٨].

فعلم ما كتب الله له، أم هو مكلف بمعرفة ذلك!! أم إنه لا يدري الفرق بين علم الله تعالى بكل شيء قبل حصوله، ووقوعه كما قدر وعلم، وبين أنه مكلف بالعمل والترك كما أمر الله تعالى ونهى!

وكذلك احتج بالقدر ذرية من ذرية آدم في تبريرهم شركهم أنهم وجدوا آباءهم مشركين فتبعوهم على شركهم، فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِظَاهِرٍ﴾

(٥) انظر: أقسام الناس في الايمان بالقضاء والقدر، عبدالله الغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية، عدد ٧٩، ص ٩٠٣.

فهم يحتجون على فعل الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم عليها، وأنها طاعات أمر الله بها، فنحن نستن بسنة الآباء، وتتبع أوامر الله بزعمهم.

وقدوة هؤلاء الكفرة إبليس حينما احتج بالقدر على معصيته في عدم السجود لآدم متوعداً بني آدم بالإغواء والإضلال؛ لأن الله أراد له الغواية - بزعمه -، فقال الله سبحانه: ﴿قَالَ فِيمَا آهْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

والباء سببية، كما يقول الزمخشري (١). ومن الفرق التي احتجت بالقدر على المعاصي: فرقة المباحية (٢) التي أسقطت الشريعة مطلقاً، وأسقطوا الأوامر والنواهي الربانية، واحتجوا على ذلك بالقدر قائلين: إن الحبيب رفع عنه التكليف (٣).

ومن الفرق كذلك الجبرية (٤) الذين سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوا حركاته

(١) انظر: الكشاف، ٨٧/٢.

(٢) هم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، وتلبسات في الحقيقة، وهم يدعون محبة الله، ويخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنه التكليف.

انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي، ص ٧٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٧٩/٨.

(٤) الجبرية: يزعمون أن العبد ليس قادراً على فعله. ومن ضلالاتهم: أن الجنة والنار تفتيان. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي ص ٦٨.

يَرْبِكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا
أَشْرَكْنَا آبَاءَنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ
أَفَنُكَلِّمُهُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُتَّبِلُونَ ﴿١٧٤﴾. [الأعراف:
١٧٢-١٧٣].

ومن وراء الاحتجاج الخاطيء بالقدر،
تضيق الحقوق. ففي حالات القتل مثلاً،
يأتي أهل الإصلاح لأولياء المقتول من باب
القدر، وأن هذا الأمر مكتوب على قتلكم،
وذلك من أجل التخفيف عن المجرم أو
العفو عنه. وبهذا تضيق الحقوق، فيزداد أهل
الحق بأساً، ويزداد المجرم إجراماً.

ثانياً: التقليد في الأحكام الشرعية:

خلق الله الكون، وهو يعلم ما يصلحه
وما يفسده، ومن حقه وحده أن يضع له
التشريع الذي يناسبه؛ فهو الأعلَم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٤].

فالحلال ما أحل والحرام ما حرم. إلا أن
من الناس من يأبى إلا أن يأتي بتشريع من
لدى نفسه، فمنهم من يتلاعب في العبادات
والشعائر، فيغير فيها زيادةً أو نقصاً، ومنهم
من يرى لنفسه حق التشريع، فيأتي بشرع غير
شرع الله تعالى.

١. التقليد في الشعائر.

الله تعالى خلقنا لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ
الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٦٦﴾ [الذاريات:

[٥٦].

وحتى تكون العبادة صحيحة ومقبولة
فلا بد لها من شرطين: أن تكون خالصة
لوجهه الكريم، وموافقة للشرع، يقول الله
تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إلا أن من الناس من يزين له الشيطان أن
يعبد الله وفق هواه، فيأتي بعبادة لم يأذن بها
الله. وهذا الصنف أمرنا الله تعالى بمخالفته
في عبادات منها:
أولاً: الصلاة.

بالنسبة لشعيرة الصلاة، فقد ورد في السنة
المطهرة ما فيه الأمر بمخالفة المشركين،
فقد روى مسلم عن جابر: (اشتكى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فصلينا وراءه، وهو
قاعد، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت
إلينا فرأنا قياماً، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا
بصلاته فعوداً، فلما سلم قال: إن كدتم
أنفًا لتفعلون فعل فارس والروم يقومون
على ملوكهم وهم قعود. فلا تفعلوا، ائتموا
بأئمتكم إن صلى قائماً فصلوا قياماً، وإن
صلى قاعداً فصلوا قعوداً) (١).

ففي هذا الحديث نهى عن التشبه بفارس
والروم حتى في مجرد الصورة، وإن كانت
نيتنا غير نيتهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة،
باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم ٩٥٥،
١٩/٢.

وقد دفع القرآن الكريم حرج الصحابة في السعي بين الصفا والمروة حينما ظنوا أن السعي بينهما من فعل الجاهلية.

روى البخاري عن هاشم بن عروة أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ حديث السن: أ رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما.

فقالت عائشة: (كلا، لو كانت كما تقول، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألو الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٤).

فمن باب حرص الصحابة رضي الله

ثانياً: الحج.

وبالنسبة لبعض مناسك الحج، فقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه مخالفة للمشركين في الوقوف بعرفة والمزدلفة والدفع منهما، امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فقد ورد أنها نزلت في قريش، وكانوا يسمون أنفسهم بالحمس^(١).

كانوا لا يقفون في عرفات، بحجة أنهم لا يخرجون من الحرم وقت الطاعة، وكان غيرهم يقفون بعرفات. ومن وقف بعرفة أفاض قبل غروب الشمس، ومن وقف بالمزدلفة أفاض إذا طلعت الشمس. فأمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بمخالفة القوم في الدفعتين. وذلك بأن يفيض من عرفات بعد المغرب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، فبينت السنة المراد من الآية الكريمة^(٢).

والحديث قصد فيه مخالفة المشركين^(٣).

٣٦٧/٢، واقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص ١١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّتَنَّكَ بَيْتَهُ تَرْضَاهَا﴾، رقم ٤٤٩٥، ١٥٣/٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، رقم ٣١٤٠، ٦٩/٤.

(١) الحمس: جمع أحمس وهو المشدد على نفسه في الدين.

انظر: عمدة القاري، العيني، ٣/١٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/٢٨٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤٢٢/٣.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال،

مخالفة الأعداء من أهل الكتاب وأن في موافقتهم تلفاً للدين»^(٣).

وفي مجال مخالفة اليهود والنصارى في كيفية صيام يوم عاشوراء: روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال: (فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع)^(٤).

فحينما أخبر صلى الله عليه وسلم بتعظيم أهل الكتاب ليوم عاشوراء، أضاف لصيامه التاسع؛ وذلك تركاً لمشابهتهم، وأمراً بمخالفتهم.

٢. التقليد في الشرائع.

أمر الله تعالى كل رسول بتشريع يناسب قومه وحالهم، موصياً إياهم بإقامته، فقال الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إلا أن المشركين ردوا شرع الله تعالى، زاعمين أنهم أهل للتشريع والتحليل والتحرير؛ فضلوا وأضلوا.

(٣) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي، ٦/ ٣٤٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٦٣٦، ٣/ ١٥١.

عنهم على مخالفة أفعال المشركين في الجاهلية، وألا يتشبهوا بهم في عباداتهم، تخرج بعضهم من السعي بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى ما يدفع هذا الحرج. وكان بالصفا والمروة صنمان إساف ونائلة، وقيل: إنهما رجل وامرأة زانيان، مسخهما الله تعالى فنصبا على الصفا والمروة ليتعظ بهما الناس، ثم نحر قصي بن كلاب عندهما وأمر بعبادتهما، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة كسرهما كراهية لدينك الصنمين، والسعي بينهما، وكان ذلك سنة في آبائهم^(١).

ثالثاً: الصيام.

وفي باب الصيام، وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح لنا مخالفة اليهود والنصارى في صيامهم. ففي مجال الترغيب في تعجيل الفطر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، إن اليهود والنصارى يؤخرون)^(٢). قال الطيبي: «في هذا التعليل دليل على أن قوام الدين الحنيفي على

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٤٦-٤٧، تحفة الأحوذى، المباركفوري، ٨/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٩٨١٠، ١٥/ ٥٠٣، وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب ما يستحب من تعجيل الفطر، ٢/ ٣٠٥، رقم ٢٣٥٣، والحاكم في المستدرک، رقم ١٥٧٣، ١/ ٥٩٦.

وصححه الحاكم على شرط مسلم.

والحام (٤) (٥).

والآية السابقة جاءت بعد نداء الله للناس بأكل الحلال الطيب من الأرض والنهي عن اتباع خطوات الشيطان (٦).

وجاء السياق بعدها يأمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، ويبيّن لهم المحرمات الأربعة من المأكولات (٧).

ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه الآية جاءت بعد آية (٨) تنفي تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة التي كانت الجاهلية تصنع منها جزءاً من تشريعها. فإذا دعي الكفار لاتباع ما أحل الله، واجتناب ما حرم قالوا مستكبرين: بل نتبع شرع آبائنا، فنحل ما أحلوا، ونحرم ما حرموا، فهم لنا سلف في التشريع، ونحن لهم خلف في التقليد. وهذا يظهر تغلغل

قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد ذكر الله تعالى قضية التحليل والتحريم في سور كثيرة - كانت الأنعام المكية والمائدة المدنية في مقدمتها - وربطها بالعقيدة، ليبين لنا أنه لا يمكن أن تكتمل دائرة الإيمان إلا بالعقيدة والشريعة معاً.

فأهل الجاهلية إن قيل لهم: اتبعوا شرع الله في الأنعام، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه الآباء.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] نزلت في قبائل عربية حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة (١) والسائبة (٢) والوصيلة (٣).

(١) البحيرة: ما كان العرب يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، فيسيبونها فلا تركب ولا يحمل عليها.

انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٧
(٢) السائبة: التي كانت العرب تسيبها في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن.

انظر: المصدر السابق، ٢٤٦
(٣) الوصلة: هي الشاة إذا ولدت ذكراً وأُنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها.

انظر: المصدر السابق، ٥٢٥.

(٤) الحام: الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا

أنتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء. انظر: غريب القرآن، السجستاني، ص ١٢٠.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص ٤٨.

(٦) انظر: سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩.

(٧) انظر: سورة البقرة: ١٧٢-١٧٣. والمحرمات الأربعة هي: الدم، ولحم الخنزير، والميتة، وما أهل لغير الله به.

(٨) انظر: سورة المائدة: ١٠٣.

بمجادلتنا في شرع ربنا شركًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُوسٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَيْهِ أَزْوَاجًا إِنَّهُ لِيُجَدِّدُ لَكُمْ وَإِنْ أطمعنؤمهم إنكم لمشركون ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

والاعتداء على التشريع، لا يقتصر على تحريم طيبات أحلت، وتحليل خبائث حرمت. فالقضية قضية مبدأ، ولمن يكون التشريع في الأمور كلها، هل يكون لله وحده سبحانه؟ أم يكون للبشر؟ وبناءً عليه وجدنا الأحرار والرهبان نصبوا من أنفسهم آلهة لها الحق في التشريع بما تهوى أنفسهم، فكان لهم أتباع اتخذوهم أربابًا من دون الله. يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

روى الترمذي عن عدي ابن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه^(٢).

التبعية للأباء في صدور المدعويين للإسلام، فحتى لو لم يكن الآباء يعقلون من أمر التحليل والتحريم شيئًا، وليس عندهم علم بما أحلوا وما حرموا، ولا عندهم كتاب اهتدوا من خلاله للتحريم والتحليل، فهم يتبعونهم في ذلك. وهذا عناد شديد وغلظة وجفوة وشدة في الصد عن دين الله تعالى.

وأراد قوم من الصحابة رضي الله عنهم أن يوجدوا تشريعًا لهم من عند أنفسهم، تشبهًا بالنصارى وذلك بتحريم بعض الطيبات من النساء والطعام كما يفعل القسيسون والرهبان، واتفقوا على صيام النهار، وقيام الليل، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا يقرّبوا النساء والطيب، وأن يلبسوا المسوح، ويترهبوا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهاهم عن ذلك، ونهاهم عن التشبه بالقسيسين والرهبان. وبين أن تشددهم كان سببًا لهلاكهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧]^(١).

فالصحابة أرادوا تحريم طيبات أحلت لهم؛ فكان النهي عن ذلك، وسماه الله اعتداءً، فهذا ليس لهم ولا للبشر. وقد عد الله تعالى طاعة الجاهليات التي تتواصى

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة، رقم ٣٠٩٥. وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدى، ص ٢٠٦.

فقد روى مسلم عن البراء بن عازب قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرفنا، وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول: اتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا^(٣). فاليهود شرعوا التحميم والجلد على

وكان على شاكلة هؤلاء، العرب الذين جاءهم عمرو بن لحي بتشريع جديد، غير فيه دين إبراهيم عليه السلام، فاتبعه جهلة العرب يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب)^(١).

فهناك المشرعون في الأرض من دون الله، ولهم أتباع يأخذون بتشريعهم. فحق الحاكمة المطلقة-كما يبين سيد قطب- لله وحده، والبشر مجردون من مزاوله هذا المبدأ في أي صورة من الصور. وحينها تكون الصغيرة كالكبيرة، ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة، أو أمر دولة، فهذه كتلك من ناحية المبدأ^(٢).

ولقد أخبرنا القرآن العظيم عن تشريعات أهل الكتاب وأهل الجاهلية المخالفة لشريعة الله تعالى، من رفض لحكم الله تعالى سواءً في النظام الاجتماعي، أم النظام الاقتصادي، أم نظام العقوبات، أم غيرها من النظم. وتوالت الجاهليات في ذلك مستبدلة تشريع الله تعالى بتشريعاتها، تاركة كتاب ربها وراءها ظهرياً، وشرعت ما لم يأذن به الله.

الترمذي، ٣/٢٤٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، ٤/١٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١٩٢-١١٩٣/٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب يقول الله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)، رقم ٣٦٣٥، ٤/١٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم ٤٥٣٦، ٥/١٢٢.

وهذا التحاكم المذموم حسب الأهواء
صفة المنافقين إخوة اليهود في الأخلاق،
فقد أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْتِيَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٧-٤٨].

وهذا ينطبق على ساسة الأمة اليوم في
عدم قبول حكم الله تعالى واستبدالهم إياه
بحكم الطاغوت. فقانون البشر الوضعي
هو المطبق في حياة الأمة الإسلامية، بدل
الشريعة الإسلامية. ففي الناحية الاجتماعية،
تجد خروج المرأة كاشفة عن مفاتن جسمها،
أمر يحفظه القانون! واتخاذ الخليلات حرية
شخصية لا يجوز التعرض لها، فالقانون
يكفلها! ولم نر حالة رجم أو جلد لزان- وما
أكثرهم- بل هي حرية شخصية لا يعاقب
عليها القانون، بل يحميها!. وفي المجال
الاقتصادي تجد التعامل بالربا عنوان غالبية
البنوك في طول بلاد المسلمين وعرضها.
وفي مجال العقوبات لم نر أي قطع يد
للسارق- وما أكثرهم-، بل يسجنون شهورًا
أو قليلاً من السنين، ثم يخرجون محترفين
أكثر، هذا إن كان من العامة، أما علية القوم،
فمعفو عنهم، مبرر لهم. ولم تكن هناك حالة

الزاني المحصن بدل الرجم مخالفين بذلك
تعاليم التوراة. والحديث يبين لنا أن اليهود
كثروا في أشرفهم الزنا، وعز عليهم أن يقيموا
عليهم الحد، فغير الأحبار شرع الله تعالى
من الرجم إلى الجلد والفضيحة والتحميم.
ولقد حاول بعض الصحابة رضي الله عنهم
أن يفعلوا فعل اليهود بتغيير حد السرقة في
المرأة المخزومية التي سرقت، لأنها من
قبيلة لها اعتبارها وشأنها، فغضب النبي
صلى الله عليه وسلم، مبيئاً لهم أن عدم إقامة
الحد على الشرفاء وعليه القوم، وإقامته على
الضعفاء فقط، ديدن الأمم السابقة، وكان
هذا سبباً في هلاكهم.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله
عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية
التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول
الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن
يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول
الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(أتشفع في حد من حدود الله). ثم قام
فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم
أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا
سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم
الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت
يدها)^(١).

باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى
السلطان، رقم ٦٧٨٨، ٤/ ١٥٠.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود،

ينكرون منكراً. فشابها اليهود في حب الدنيا فكثرت الذنوب، فكانت النتيجة تشابهاً في قسوة القوب.

ومن أخلاق اليهود التي نهانا الله تعالى عن التخلق بها، قلة الأدب مع الأنبياء وإيذاؤهم. فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه باليهود في قلة التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وسبب نزولها - كما ذكر السيوطي - أنه: كان رجلاً من اليهود: مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا وهم يكلمانه: راعنا سمعك واسمع غير مسمع، فظن المسلمون أن هذا الشيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (١).

وكلمة راعنا سب بلغة اليهود يورون عنها بالرعونة، وكان المسلمون يقولونها ظناً منهم أن الأنبياء تفخم بها، فكره الله تعالى للمؤمنين أن يقولوه لئيبهم ذلك؛ سداً للذريعة، ونهيًا عن تقليد اليهود في قصدهم.

فالله تعالى نهى المؤمنين عن التشبه باليهود في أقوالهم وكيفية مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت اليهود لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه كلمة (راعنا) وهي (راعينا) ومعناها: اسمع لا سمعت، أو أنت راعي غنمنا، وكان المؤمنون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم إذا حدثهم بحديث: راعنا يا رسول الله، أي: راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقفها اليهود لموافقها الكلمة السيئة عندهم، وأخذوا يلون بها ألسنتهم، إساءة للنبي صلى الله عليه وسلم موهمين أنهم يريدون الانتظار، فنهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكرهها لهم (٢).

ولقد حاكى اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، أسلافهم في إيذاء الأنبياء عليهم السلام. فقد آذوا الأنبياء بالقتل والتعنت والصلف، وعدم طاعتهم، وعلى رأس هؤلاء الأنبياء الذين تعرضوا لإيذاء اليهود سيدنا موسى عليه السلام، فقال الله سبحانه مخبراً عن هذا الإيذاء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٤٦٠، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢٥٣.

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

عِنْدَ اللَّهِ وَجِبًا ﴿٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

فأله تعالى ينهى كل مؤمن أن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بقول يكرهه، أو بفعل لا يحبه، ونهاهم أن يكونوا أشباه الذين آذوا موسى عليه السلام.

وقد وقع الخلاف فيما أؤذي به النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية، فبين النقاش: أن إيذاءهم للنبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: زيد بن محمد. وقيل: نزلت في شأن زيد بن حارثة وزينب بنت جحش، وما سمع فيه من قالة بعض الناس، أو إيذاءه في اتهام زوجته الطاهرة عائشة رضي الله عنها بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك، وقول بعضهم وقد قسم مآلاً: عدل فينا يا رسول الله. فقال له: ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟ وكان يقول: يرحم الله موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر^(٣).

فأله تعالى ينادي مؤمني هذه الأمة ناهياً إيهاهم عن إيذاء نبيهم بأذى، ولا يكونوا كبنبي إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن.

ومن الذين حاكى اليهود في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، المنافقون إذ طعنوا في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فاتهموها بالفاحشة.

حيث أنزل الله تعالى في رأس النفاق

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢٩٨/٤.

ومن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء؛ استحياء منه. فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة^(١)) وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فأراه عرباناً أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون... فذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبًا﴾^(٢).

فجاء القرآن الكريم ناهياً المؤمنين أن يفعلوا فعل اليهود بإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ

(١) أي: نفخة في الخصية.

انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٠، ١٢٩/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٦٢٩٦، ٩٩/٧.

يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بشعره، وحاول يهود بني النضير إيذاءه بالقتل. ويتوالى الإيذاء في العهد الأموي، حيث وصف النصراني الحاقد يوحنا الدمشقي الرسول صلى الله عليه وسلم باستغلاله الدين لمصالحه الشخصية. ويتبع مرضى العصر الحديث أسلافهم المرضى في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشابه هذا الإيذاء، ما كان من صحيفة بلاند بوستن. وكذلك ما كان من فيلم الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم والذي عرض في أمريكا.

إن الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ولدينه، تتشابه فيه فئات من الناس على اختلاف ألوان مللهم، وعلى توالي الزمان، ونسمع من المسلمين - وللأسف - شتمه للنبي صلى الله عليه وسلم. ومنهم من لا يتأدب عند رواية أحاديثه، ولا عند مناقشتها، ولا عند رؤية من يلتزم بسنته صلى الله عليه وسلم، وهذا كله من الإيذاء.

ومن أخلاق السوء التي نهانا الله عن امتثالها، وعن فعلها كما فعلها أهل الكتاب: التفرق والاختلاف والتشردم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

أي: لا تكونوا يا معشر المؤمنين كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلَفوا في

عبد الله بن أبي بن سلول وأناس معه قذفوا عائشة، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] (١).

فنحن نرى أن سورة الأحزاب، تتحدث عن إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك عن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام، ونهينا عن التآسي بالفريقين. ومعلوم أن المنافقين إخوان اليهود في أخلاق السوء، بنص القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

وتتوالى الأنفس المريضة الكافرة في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، متبعاً لللاحق منها السابق، سواء بالاعتداء على شخصه أو أتباعه المؤمنين، أم بالافتراء والكذب عليه بوضع الحديث. ويتداول خلق الإيذاء هذا أناس، منهم المشركون ومنهم اليهود ومنهم المنافقون، حتى العصر الحديث. ففي العهد المكي: كان من أوائل من آذوه عمه أبو لهب وزوجته حمالة الحطب. وألقى الشقي عقبه بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره صلى الله عليه وسلم. وفي العهد المدني آذاه اليهود بالقول والفعل، فقد كان اليهودي كعب بن الأشرف

(١) لباب النقول، السيوطي، ص ١٧١.

دين الله تعالى، وخالفوا أمره، من بعد ما جاءهم البينات. فلا تفعلوا فعلهم، وتستنوا سنتهم^(١).

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تفرق اليهود والنصارى وتفرق أمة الإسلام في حديث واحد، حيث قال: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)^(٢).

وفي هذا دلالة على وقوع التفرق والاختلاف في الأمة كما وقع في أهل الكتاب.

ويحذرنا الله عز وجل في آيات أخرى من مشابهة أهل الكتاب في التفرق، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلٌّ لِدِينِهِم فِرْحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأوحى الله تعالى لنبيه صلى الله

عليه وسلم، أن يتبرأ من الذين تفرقوا في دينهم، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً. والتبرؤ يقتضي المخالفة، وترك المشابهة بأفعالهم وتفرقهم. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن كرامة هذه الأمة على الله تعالى، أن يأمرهم بما أمر به أولي العزم من الرسل، وينهاها عما نهاهم عنه، فقال الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا فيه حث لهذه الأمة أن تسلك سبيل صفوة الصفوة من الخلق وهم أولوا العزم وتلتزم بصفاتها، وألا يسلكوا سبيل من اتبع غير سبيل المؤمنين.

والناظر لحال أمة الإسلام يرى التفرق والتشرذم والتناحر والتباغض، سواء على مستوى الأفراد، أم الجماعات، أم المؤسسات، أم الدويلات الإسلامية. كل مستوى يخطئ الآخر، ويرى نفسه الحق، وما عداه باطل، وسرى هذا الداء إلى أنفس العاملين للإسلام. وقليل من أبناء الأمة من ينظر بعين الحاذق إلى حقيقة الاختلاف، وأنه لا يجوز -ولا بأي حال- أن يؤدي إلى تناكر القلوب وتباغضها. وتعددت الأفكار

انظر: جامع البيان، الطبري، ٩٢/٧ (١)
أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم ٤٥٩٦، ٤/١٩٧، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم ٢٦٤٠، ٥/٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم ٣٩٩١، ٢/١٣٢١.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
ووافقه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٥٣/٣.

ويحذرنا الله عز وجل في آيات أخرى من مشابهة أهل الكتاب في التفرق، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلٌّ لِدِينِهِم فِرْحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأوحى الله تعالى لنبيه صلى الله

عليه وسلم، أن يتبرأ من الذين تفرقوا في دينهم، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً. والتبرؤ يقتضي المخالفة، وترك المشابهة بأفعالهم وتفرقهم. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن كرامة هذه الأمة على الله تعالى، أن يأمرهم بما أمر به أولي العزم من الرسل، وينهاها عما نهاهم عنه، فقال الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا فيه حث لهذه الأمة أن تسلك سبيل صفوة الصفوة من الخلق وهم أولوا العزم وتلتزم بصفاتها، وألا يسلكوا سبيل من اتبع غير سبيل المؤمنين.

والناظر لحال أمة الإسلام يرى التفرق والتشرذم والتناحر والتباغض، سواء على مستوى الأفراد، أم الجماعات، أم المؤسسات، أم الدويلات الإسلامية. كل مستوى يخطئ الآخر، ويرى نفسه الحق، وما عداه باطل، وسرى هذا الداء إلى أنفس العاملين للإسلام. وقليل من أبناء الأمة من ينظر بعين الحاذق إلى حقيقة الاختلاف، وأنه لا يجوز -ولا بأي حال- أن يؤدي إلى تناكر القلوب وتباغضها. وتعددت الأفكار

انظر: جامع البيان، الطبري، ٩٢/٧ (١)
أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم ٤٥٩٦، ٤/١٩٧، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم ٢٦٤٠، ٥/٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم ٣٩٩١، ٢/١٣٢١.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
ووافقه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٥٣/٣.

وأصحابه المنافقين^(١). وصيغة ﴿إِذْ اصْرَبُوا﴾
صيغة استقبال في معنى الاستمرار^(٢).

وهذا الظن السيء، يتكرر ويتجدد،
مشابهة للمنافقين السابقين. فترى ضعاف
الإيمان يشطون عن الجهاد والاستشهاد،
قائلين لإخوانهم المجاهدين: لو كانوا
عندنا ما ماتوا وما قتلوا! ولو لم يجاهدوا ما
غيبوا في غياهب السجون! ولو لم يخالطوا
المجاهدين ما أبعدوا عن أوطانهم ولا
توقفت عطاياهم!

ولقد شابه المنافقين في الظن السيء،
ظن أهل الجاهلية، الذين ظنوا أن الله
تعالى لا ينصر رسوله والمؤمنين، فقال
الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدْرٍ نَجْمٍ
أَمَنَةً نُمَاسًا يَنْشُرُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَطَافَةٌ قَدْ
أَهَمَّتْكُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ
قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا
يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا
قُتِلْنَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول ابن القيم: «وقد فسر هذا الظن
الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر
رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه
للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن
بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه»^(٣).

(١) انظر: جامع البيان. الطبري، ٧/ ٣٣٠.

(٢) انظر: روح المعاني، الألويسي، ٧/ ٣٣٠.

(٣) زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ٢٢٨.

والرؤى التي ينتمي إليها أبناء المسلمين،
فأصبحنا شيعاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم
فرحون. وانتشرت البغضاء فيما بين هذه
الأحزاب، حتى ضرب بعضها رقاب بعض،
ولا أدل على ذلك مما حصل في فلسطين،
حينما كانت الاستجابة لأوامر يهود.

٢. تقليد أخلاق المنافقين.

النفاق صفة ذميمة يلجأ إليها بعض البشر
حينما لا يستطيعون الوصول إلى أهدافهم
بسهولة، فيلجأون إلى النفاق. وهذه الفئة
البشرية تتصف بصفات بذيمة، ويتخلقون
بأخلاق مسمومة ذميمة، حذرنا الله تعالى
منها، والتشبه بها، أو سلوك سبيلهم في
مثل هذه الأخلاق. ومن صفاتهم الذميمة
التي نهينا عن تقليدهم فيها: الظن السيء،
والإعراض عن الحق، والخوض في آيات
الله بالباطل.

لقد جاء القرآن الكريم ينهانا عن التآسي
بالمنافقين في صفتهم الظن السيء الذي
ينص على أن خروج المؤمنين غزاة طائعين
لله تعالى سبب في قتلهم وموتهم.

فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذْ اصْرَبُوا
فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكِ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾

[آل عمران: ١٥٦].

وهذه في عبدالله بن أبي بن سلول

المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامثال فعله»^(١).

واليوم ترى الذين في قلوبهم مرض يتولون عن أمر الله تعالى، فهم يقولون: سمعنا، وهم لا يسمعون. فكم من سامع لآيات الله تتلى عليه سماع أذن لا عمل فيه. فمثلاً انتهى عن التشبه بالكفار في التحاكم إلى الطاغوت فلا استجابة، وتنتهى عن التشبه بالكفار في الزي والمظهر فلا سمع ولا طاعة، وتؤمر الفتاة المقلدة لفاجرات الكفر، بمواراة السوء فلا تلي، وتنتهى عن نصرة الظالم بالباطل - كما هي جاهلية مكة الأولى - فلا تلبية ولا استجابة، وتنتهى عن أكل أموال الناس بالباطل فلا يستجيبون.

ومن صفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم: الخوض في آيات الله بالباطل والاستهزاء بها، ومن شدة خطورة هذه الصفة، لم ينهنا الله تعالى فقط عن فعلها، بل وعن الجلوس مع الخائضين والمستهزئين بها، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۗ﴾ [النساء: ١٤٠].

وأمر الله المؤمنين بالإعراض عن هذه

وتتجدد واقعية الآية، وتكرر أخلاق النفاق في زماننا اليوم، إذ الشيطان عن الجهاد، والتخويف من شأنه وشأن المجاهدين وسلاحهم، مقابل تهويل المنافقين لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. ويظنون بالله ظن السوء، وأن الله تعالى لن ينصر العاملين لدينه المستمسكين بحبله المتين، فهم لا قبل لهم بأعدائهم، فعدتهم أضعف من عدة عدوهم. كذلك ينتظر هؤلاء المنافقون، عثرات المجاهدين والإصابة منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْ اللَّهَ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَقُلْ إِنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۗ﴾ [التوبة: ٥٠].

ومن أخلاق النفاق، التي كان الزجر عن التشبه بها: خلق الإعراض عن الحق، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَوَلَّوْا سَمِعُونَ ۗ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢١].

فصفة المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يقولون: نسمع كلام الله، لكنهم لا يتفعلون بما سمعوا، ويتولوا وهم معرضون.

يقول القرطبي: «فدلت الآية على أن قول

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٤٦.

المعتصمين بدين الله تعالى، وتغيير الناس منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَيْلَهُمْ وَعَآئِنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٦].

٣. تقليد أخلاق المشركين.

المشرك له من الأخلاق الذميمة الكثير، فهمه الأكبر نفسه، ينظر إليها على أنها غايته، فيحقق لها ما يستطيع من متاع الدنيا، وكلما ازداد في البحث عن شهواته ورغباته، ازداد تأصل الأخلاق السيئة في نفسه. وذكر الله أخلاقاً للمشركين لتكون - نحن المؤمنون - أبعد الناس عنها تشبهاً وتقليداً وفعلاً. ومن أخلاق المشركين التي نهينا عن التخلق بها، خلق البطر والرياء، والعصية القلبية التتنة، والتبرج المذموم.

فمن خلق البطر والرياء، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيعَةً النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

لما رأى أبو سفيان أن غيره نجت، أرسل إلى أبي جهل يخبره بذلك، طالباً منه العودة، إلا أن أبا جهل ركب رأسه وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليها ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام،

صفته، نراه في قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهذه «نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم.

قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ومبتدع إلى يوم القيامة»^(١).

والأمر بالإعراض عن الخائضين من المنافقين، وعن مجالستهم، أبلغ في الزجر من النهي عن مشابعتهم في هذا الخلق الذميم.

يقول أبو السعود: «المراد بالإعراض: إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط»^(٢).

ومن الجلوس مع المستهزئين بآيات الله، الجلوس أمام شاشات بعض الفضائيات التي تستهزئ بالعاملين لدين الله تعالى، وتصورهم بصور تنفر العامة من الدين، كأن تصورهم بأنهم قاطعوا طريق، أو أصحاب قوة يستخدمونها في سفك الدماء والاعتداء على حقوق الناس، وأنهم إرهابيون. كل ذلك وأمثاله من باب الطعن والنيل من

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٦٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٤٥.

البطر الأشر.

ومن أخلاق المشركين التي نزل فيها القرآن يحذر المسلمين من مزاولتها: دعوى الجاهلية، فقد قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ آوَتْوا إِلَيْكُمْ يَرُدُّوكُمْ بِعَدَائِمِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

وسبب نزولها أن شاس بن قيس اليهودي - وكان شديد الضغن على المسلمين - مر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ألفتهم بالإسلام من بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من عداوة، فقال: والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يعمد إليهم، ويذكرهم بعائاً^(٢)، وما كان فيه من قتل بينهم، ففعل، فتنازع الفريقان، منادياً كلاً منهما قبيلته فخراً، كما كانوا عليه في الجاهلية. فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المسلمين، أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم. عندها عرفوا أنها نزعة الشيطان، فتعانقوا،

(٢) بعث موضع بالمدينة، كانت فيه وقعة عظيمة بين الأوس والخزرج، قتل فيها خلق من أشرافهم وكبرائهم.
انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ١١٧.

ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابونا أبداً^(١).

فالكبر والبطر يملآن قلب أبي جهل. فكان النهي الرباني للمؤمنين عن أن يزاولوا مثل هذه الأخلاق، وزجرهم أن يكونوا مثلهم في أفعالهم.

وهكذا يتكرر فعل أبي جهل، من قبل أحفاده، نظروا إلى الدنيا، ظانين أن النصر من خلال الخمر والسهر والقيان، فشربو الخمر حتى ثملوا، وعزفت لهم القيان، فضاعت العباد والبلاد. ولو أنهم كانوا ممن عرف الله، لأقاموا الليل بالقرآن، بدل عزف القيان، ولسمعوا قول الله تعالى وهو يناديهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاةَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

سماع المجيب، ولكان قدوتهم جند صلاح الدين الذين كان وصفهم: رهبان بالليل، فرسان بالنهار. فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكانت الذلة والمسكنة، كما كان حال أبي جهل الذي شرب كأس المنيا بدل كأس الخمر، وناحت عليه النوائح بدل زغاريد القيان، وذكرتهم العرب بالصغار بدل الفخار. وما زالت الأمة تتجرع كأس الهوان من وراء أفعال أتباع أبي جهل

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/ ١٦٦.

فأنزل الله الآيات السابقة^(١).

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى المؤمنين من إثارة الجاهلية والنعرات العصبية، التي أثارها اليهود بينهم، مبيّناً أن طاعة اليهود توصل إلى الكفر والردة بعد الإسلام والإيمان.

ويعيد التاريخ نفسه، ويحسد الكفار المسلمين على تجمعهم ووحدهم وتآلفهم، ويقف التآلف هذا عقبة في وجه الاستعمار في العصر الحديث، ففكر أحفاد شاس بن قيس، كما فكر في الإيقاع بين المسلمين، ونشر دعوى الجاهلية؛ لتسهل السيطرة وليهون الاستيلاء. فقد أقيمت الجامعة الإسلامية في أواخر الدولة العثمانية على أساس إعادة الوحدة للأمة، ونشر ثقافة المقاومة للمستعمر، فما كان من دول الاستكبار يرأسهم يهود، إلا أن أثاروا النعرات الإقليمية في أوساط الشعب الإسلامي الواحد، وكان في الأمة أمثال أبي رغال^(٢) الذين يصنعون من أنفسهم جسراً لعبور الأجنبي الدخيل إلى حصن الأمة، فنعقوا بما نعقت به السياسة البريطانية (فرق

تسد)، وسبحوا بحمد النعرات القبلية، التي أثارها المستعمر في البلاد الإسلامية. فأثار في المصريين الفرعونية، وفي العراق الآشورية، وفي فلسطين الكنعانية، وكان هذا في البداية على مستوى الدولة الإسلامية الأم، ثم لما كان ذلك للمستعمر من خلال الأبواق الناعقة بلغته وفكره، مقلدة له في هذه النعرات، راح ينشر فكر العصبية والقبلية التنتة على مستوى الدولة نفسها، فأخذ ينشر ثقافة مدني وفلاح، وقروي وحضري، وفي بلادنا ثقافة لاجئ وغير لاجئ. وهكذا كان للقبيلة وتعظيمها بالأباء مكان في أنفس المقلدين الناعقين بما نعقت به الصهيونية والصليبية.

وكذلك نشر الاستعمار، العصبية القبلية، والعنصرية البغيضة، باسم القومية العربية، وذلك من أجل فصل العرب عن جسمهم الأم دولة الإسلام التي كانت متمثلة في الدولة العثمانية. والقومية العربية فكرة صليبية حاقدة، تهدف إلى ما هدف إليه شاس بن قيس من تفتيت الأمة وضياعها وتفرقتها.

وهكذا نجد الثمار الخبيثة التي حذرت منها آيات آل عمران السابقة من تفرق الأمة، وضرب بعضهم رقاب بعض، والخلافات الحدودية والسياسية وغيرها، موجودة اليوم.

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ٧٦-٧٧.

(٢) أبو رغال: رجل من نجد كان دليلاً لأبرهة الحبشي على البيت الحرام لهدمه، فلما وصل مع أبرهة إلى موضع يسمى المغس مات أبو رغال، فصارت العرب ترحم قبره.

انظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك، الطبري، ٤٤١ / ١.

كان النهي في الآية لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، إلا أنه يعم المسلمات جميعاً.

يقول الشوكاني: «ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كتتن عليها، وكان عليها من قبلكن، أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل»^(٣)، ولئن نهت الآية عن تبرج مثل تبرج الجاهلية الأولى، إلا أن الجاهلية تتكرر، ولا تختص بفترة زمنية معينة، بل هي حالة اجتماعية معينة، لها تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الجاهلية في أي مكان وفي أي زمان^(٤).

لقد حرر الكفر اليوم المرأة على طريقتها الشيطانية حينما تعرت على عينه من لباس الباطن لباس التقوى أولاً، ثم من لباس الظاهر لباس الحشمة والوقار ثانياً، فنشبهه الغربي في شارعهِ ومتجرهِ وجامعته، بل وأنشأ دوراً خاصة للعري والبغاء، وعز عليه حسداً أن يرى المسلمات محتشمات عفيفات فصنع على عينه من سرازم الأمة، من يتطبع بطبعه، ويصنع رذيلته، وينقل فكرته إلى ديار المسلمين، تقليداً للكافرات الفاجرات.

فانتشرت فكرة تبرج الجاهلية الأولى في

(٣) المصدر السابق، ٤ / ٢٧٨.

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص ٧٦.

ومن بلاغة الآية وإعجازها: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ءِيمَتِكُم كَهْفِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

أنها حذرت من طاعة أهل الكتاب اليهود والنصارى-جميعاً، ولم تذكر اليهود فقط الذين كانوا سبباً في نزول الآية؛ وذلك لعلم الله تعالى أن أمر الدس والتفريق سيتكرر، لكن على يد النصارى هذه المرة، وإن كانت اليد اليهودية الأثيمة لها شأن في ذلك.

ومن الأخلاق التي انتشرت في الجاهلية ونهى القرآن عن التشبه بها أو مقارفتها، خلق التبرج، حيث يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَبَخَّجْ تَبَخَّجَ نَبِجِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتبرج الجاهلية: كان بخروج المرأة تمشي بين يدي الرجال، مع تكسر وتبختر وتغنج، أو أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها^(١) وعنتها، ويبدو ذلك كله منها، مما يستدعي به شهوة الرجل^(٢).

فجاء القرآن الكريم ناشراً للعفة والطهر في المجتمع، بنهيه عن التشبه بالكافرات الفاجرات، وألا يتبرجن مثل تبرجهن. ولئن

(١) القرط: نوع من حلي الأذن.

انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧ / ٣٧٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣ / ٥٤٦، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤ / ٣٧٣.

آثار التقليد والتبعية

لما كان لكل عمل نتيجة، ولما كانت الأسباب مرتبطة بالمسببات، كان لما يصدر عن الإنسان المكلف من أعمال، نتائج وآثار، والمرء حينما يقوم بأعمال متشبهها فيها بغيره، فإنه ينجم عن ذلك نتائج وآثار، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك حسب المتبوع وأعماله المقلدة.

والإنسان المكلف يتحمل تبعة تقليده للآخرين، والآثار الناتجة عن ذلك، سواءً أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، ومن هنا سيكون هذا المبحث ضامًا للمطلبين الأتيين:

أولاً: آثار التقليد في الدنيا:

الصاحب مع صاحبه مؤثر أو متأثر، وكذلك الجماعات والدول، ترى فيها التابع والمتبوع. والأعمال المتبوعة منها خير ومنها شر، والخير ينتج عنه الخير، والشر لا ينتج عنه إلا الشر. والتقليد لأعمال السوء لا ينتج عنه إلا السوء. ففي الدنيا تنتشر التفرقة، ويتخلى الله تعالى عن هذا الصنف من الناس فيخذلهم ولا ينصرهم، وتكون الموالاة السيئة لأعداء الله تعالى، حيث الفساد والردة. ومن هنا يندرج تحت هذا المطلب الأمور الآتية:

ديارنا، حتى غدا في جامعاتنا، ومدارسنا، وقرانا ومدننا، وفي السفر والحضر، وفي الحل والترحال، وهذا مصاحب بالزينة، والجلسات المشبوهة، خاصة في الجامعات، فأصبح هذا الجانب من التبرج لا تختلف فيه بشيء كثير عن جاهلية الغرب الذي صدر لنا هذا التهتك والعري، فاستقبله كثير من جاهلات الأمة ظناً منهن أنه الرقي والفخار. فكانت جاهلية اليوم أشد من جاهلية الأمس في تبرجها هذا.

والمجوسية والعلمانية والإلحادية وغيرها من سبل الكفر، ولئن سلكنا هذه السبل فمصيرنا التشتت بنا عن طريقه ودينه الذي ارتضاه وهو الإسلام وهذا ما هو حاصل للأمة اليوم.

فسييل الحق واحد لا تشعب فيه، وسبل الباطل كثيرة كالبدع والخوض في الباطل، والأهواء ومبادئ الضلال، وهذا كله تضاد يسبب التفرق والتشرذم.

يقول ابن كثير: «إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقتها وتشعبها»^(٢).

والذي يأتي بما يخالف شرع الله تعالى فإنه مبتدع، والبدعة تتضمن تفرق الأمة الإسلامية؛ إذ إن صاحب البدعة، يدعي أنه على الحق وغيره ضال، وبهذا يتفرقون ويصبحون شيعاً وأحزاباً.

وهذا حاصل اليوم، فعلى مستوى الأفكار والرؤى، يوجد في الأمة من ابتدع فكرة العلمانية متبعاً فيها الغرب العلماني، وفي الأمة من اتبع بدعة الشيوعية الملحدة، وكل منهم ينظر لنفسه أنه على الحق والقادر على إعادة حقوق الأمة المسلوبة، وتحرير مقدساتها، ويذم الآخرين؛ فتفرقوا.

والفرق بين الفريقين أن أهل الحق وإن اختلفوا في أمر اجتهادي فسرعان ما

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٧٠/٢.

١. التفرق والميل عن سبيل الله تعالى .

يقول المولى عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

جعل الله تعالى البشر فريقين: فريقاً يدعو إلى الجنة، وفريقاً يدعو إلى السعير. والذي يدعو إلى الجنة له طريق واحد لا ثاني له يتلقاه من ربه عز وجل، فيلتزم به ويدعو إليه، أما الذين يدعون إلى النار فإنهم كثيرون، يتلقون الأوامر والنواهي من جهات شتى، فيدعو كل منهم حسب هواه إلى بدعته، ولهذا كانت لهم سبل شتى يدعون إليها أتباعهم، فتكون نتيجتها التفرق والاختلاف والشتات والزيغ والضلال.

وآية الأنعام السابقة كانت خاتمة للوصايا العشر^(١) التي وردت في آيتين سابقتين لهذه الآية. والذي وصى به ربنا، في هاتين الآيتين هو صراطه ودينه الذي ارتضاه لعباده، وهو طريق قويم لا اعوجاج فيه، أمرنا بالعمل به، وأن نجعله لأنفسنا منهاجاً نسلكه، وألا نسلك منهاج غيرنا، من اليهودية والنصرانية

(١) وهي: عدم الإشراك بالله شيئاً، والإحسان إلى الوالدين، وتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم قتل النفس إلا بالحق، والنهي عن تناول مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والميزان، والعدل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم.

٢. الخذلان وفقدان النصير.

بين الله سبحانه للبشر طريق الخير وأمرهم بها، وبين لهم طريق الشر وحذرهم منها. ومن خالف ذلك متبعًا مخالفًا أو امر الله تعالى، كان خصمًا لله تعالى يخذله ولا ينصره.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالله تعالى بين للمؤمنين حقيقة اليهود والنصارى، وأنهم لا يرضون منا إلا اتباع ملتهم، فجاء التحذير الإلهي: بأن اتباع ملتهم فيه فقدان ولاية الله ونصرته.

ولقد تحدثت سورة الجاثية عن بني إسرائيل^(٣) وأنهم اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات.

ثم حذرت النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع أهواء الذين لا يعلمون من كفار مكة وغيرهم؛ فالظالمون بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين.

فقال المولى عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ

(٣) الجاثية: ١٦-١٧.

يحتكمون للكتاب والسنة فيلتزمون، وكل يخضع للحق، فتبقى صفة الوحدة والألفة شعارهم، بينما أهل الضلال كل واحد منهم يركب رأسه، ويريد تعظيم نفسه، وتصغير الآخرين، ولا يريد الحق، فتجدهم دائمًا في اختلاف وصراع، لتشعب مناهجهم وتنوعها، وكل حين يخرج منهم مذهب جديد^(١).

ومنهج الله تعالى واحد، وكتابه واحد، والذين يتبعونه من الأمة يكونون موحدين، أما غير منهج الله فإنها مناهج مفرقة مشتتة وفيها الاختلاف الكثير، وما دام الأمر كذلك فإن نتيجة متبعيها التفرق والتشتت والميل عن سواء السبيل.

يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)^(٢).

فاختلاف القلوب مسبب لتباغض القلوب وتناحرها وتفرقها.

(١) انظر: إعانة المستفيد، الفوزان ص ٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف والكرامية التأخر، رقم ٦٧٥، ٢/٢٥٣. وصححه لأباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٦٧٩، ٢/٣.

والركون إلى الذين ظلموا يعني: محبتهم والميل بالقلب إليهم، ومداهنتهم والرضى بأعمالهم، والذنو منهم، وطاعتهم، والاعتماد عليهم في قضاء المصالح^(١). والذي يركن إلى الذين ظلموا بشيء من ذلك؛ فإنه يفقد الولاية والنصرة من دون الله تعالى. والأمة اليوم فقدت نصره الله تعالى، وذلك لأنها رضيت أعمال الذين ظلموا، بل شابحت أعمالهم وفعلت فعلهم، فكانت جديرة بأن يتخلى ربه عنها ويتركها من ولايته ونصرته.

وإذا كان الميل اليسير إلى الذين ظلموا، يفقد النصرة والمعونة والولاية من الله تعالى، فكيف بالميل كل الميل إلى الظالمين! بل كيف بالظالمين أنفسهم! وإذا كان بمجرد الميل القلبي ترتفع النصرة ويكون الخذلان، فكيف -والحال اليوم- المخالطة والمشاورة، والمشاركة في مطاردة الإيمان وأهله ومحبة الظالمين وتبجيلهم وتقديرهم، بل وتعظيمهم، ونقل أسرار المسلمين إليهم! فهل يبقى بعد ذلك لنا من ولي من الله أو نصير!

ولقد ذكر الله تعالى في أكثر من آية أن

﴿وَلِيٌّ الْمُنْفِقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

ولئن كان اتباع من النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأهواء من أهل الكتاب والكفار، من بعد ما جاءه من الحق -وحاشاه-؛ فليس له من نصير ينصره من عذاب الله، وليس له منهم من أحد عنه حاجزين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنَّ أَتْبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

والملاحظ أن الخطاب في آيات البقرة: ١٢٠، والرعد: ٣٧، والجاثية: ١٨ السابقة موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنك إن اتبعت أهواء الذين لا يعلمون، وأهواء أهل الكتاب -وحاشاه أن يفعل ذلك- فإن لك عذاباً، لا يدفعه عنك أحد. والخطاب هذا خطاب لأمته. فإذا كان الأمر كذلك مع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن دونه من الناس، وفي هذا تحذير شديد، ووعيد كبير لمن اتبع غير سبيل الله بأنه سيفقد الولي والنصير.

ورفع الله ولايته ونصرته عن الذين يركنون إلى الذين ظلموا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥٠٠/١٥، النكت والعيون، الماوردي، ٥٠٨/٢، الكشاف، الزمخشري، ٤٠٨/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٢/٩.

الظالمين ليس لهم نصير^(١).

وركون الذين ظلموا أنفسهم إلى الظالمين، وخضوعهم لجورهم، من أهم أسباب تفشي الظلم في الأرض، وانتفاش الظالمين، وزيادة بطشهم، فيكون الذين ركنوا أدوات في أيدي الظلمة يحركونهم لتوسيع نفوذهم، وتنفيذ أوامره في ضرب الناس، ويبلغ العجز والهوان بالذين ظلموا أنفسهم إلى التسابق من أجل إرضاء الظلمة، فيتبعونهم في استجابة أمرهم، عندها تكون العقوبات الثلاث: فقد ولاية الله تعالى، وتخلف نصره، والنار.

٣. ضرر موالاتة الكافرين.

المؤمن ولي للمؤمن، يحبه، ويأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويعادي من عاداه، ويوالي من والاه، وينصره، فالذين آمنوا بعضهم أولياء بعض. وعندما يكون الأمر كذلك؛ فإن الخير يعم، والصلاح ينتشر، والفساد يضمحل. وهكذا أمرنا من الله تعالى أن نكون، إلا أن ضعاف الإيمان من المسلمين حينما يوالون أعداء الله، وينصرونهم ويعينونهم، ويطلعونهم على أسرار المسلمين؛ فإنك تجد ضرر ذلك بالفساد والردة.

فالفاسد الناتج عن موالاتة الكافرين،

(١) انظر: البقرة: ٢٧٠، وآل عمران: ١٩٢، والحج: ٧١، والشورى: ٨.

حذرنا الله منه، بعد أن أمرنا بموالاتة المؤمنين حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الَّذِينَ قَعَلْتُمْ الْإِنصَارَ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ كُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٤﴾ [الأفال: ٧٢-٧٣].

فالآيتان فيهما المفاصلة بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكافرون بعضهم أولياء بعض. «الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً»^(٢).

والمؤمنون إذا لم يوال بعضهم بعضاً نصرة ومحبة وولاء، ويعادوا الكافرين بغضاً وخذلاناً لهم وحرماً عليهم؛ تكن فتنة عظيمة وهي الشرك وقوة الكفر، وفساد كبير بانتشار المعاصي وضعف الإسلام وأهله، ويختلط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعدم كثير من العبادات الهامة، كالجهاد والحكم بما أنزل الله^(٣).

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، ص ٩٠.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٣٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٢٧.

محاكمة.

ومن ضرر موالة الكافرين أيضًا: الردة؛ فمن والاهم فهو منهم، ويتبرأ الله منه. يقول المولى عز وجل ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وسبب نزولها: أن عبادة بن الصامت قال: «لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي له من عبد الله بن أبي، فحالفهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة في المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية (١).

والآية تعني: لا تعتمدوا على الاستنصار باليهود والنصارى، ولا تتوددوا لهم، ولا تصافوهم مصافاة الأحاب، ومن يتولهم من المؤمنين؛ فإنه من جملتهم، وحكمه حكمهم، ويكون مثلهم (٢).

ولقد تبرأ الله تعالى من كل من يتخذ

(١) لباب النقول، السيوطي، ص ١٠٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/١٥، روح المعاني، الألوسي، ٦/١٥٦.

والمرء إذا أحب آخر، أحب عمله، وقلده فيه واتبعه، وانتقل ذلك إلى إكرام محبوبه، وتقديره واحترامه، فيخالطهم، وينتقل معهم، وحينها يكثر سوادهم وأعمالهم. فإذا كان مثل هذه الأعمال من مسلم لكافر، فهذا يعني الفتنة وانتشار الفساد، فالمسلم الموالى للكافر يقلده في أعماله وأقواله، وينشر فكرته، ويسيء لدينه وأمته ووطنه، بجلب فساد الكافرين إلى ديار المسلمين.

وهذا الفساد متنوع:

فعقيدة: كان التشكيك في المسلمات.

وسياسة: لسنا إلا ذبيلاً للغرب الكافر.

وأخلاقاً: فسدت الشباب، وطغت النساء، وحميت الرذيلة، وهوربت الفضيلة، وأصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وسفلة الأمة ورويضتها تتكلم في أمر العامة.

وبهذا نشر الإعلام الضال المضلل أنواع الفساد هذه وأضعافها.

وكلمتا (فتنة وفساد) في الآية السابقة نكرة، وذلك لتعم كل فتنة وكل فساد، ووصف هذا الفساد بالكبير يظهر ضخامته. ومن الفتنة تخويف العامة من المساجد وطريقها وأهلها، وتحذيرهم بالسجن والمساءلة وعدم الحصول على وظيفة، وفي المقابل فتح الطريق أمام الجيل للذهاب إلى السوء وأهله، فطريقه آمن، لا مساءلة فيه ولا

الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فقال الله سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ما يرضيه عنهم من قتال الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

فمن اتخذ الكافرين أنصارًا يواليهم ويظاهرهم على المسلمين؛ فقد برئت منه ذمة الله، وارتد عن دينه. ونادى رب العزة المؤمنين، محذراً إياهم طاعة أهل الكتاب وطاعة الكافرين، وفي السورة نفسها، لما يؤدي ذلك إلى الردة بعد الإيمان^(١).

فاتباع نواهي الله، وعدم امتثال أمره، ينتج عن ذلك إحباط العمل وبطلانه. وإحباط العمل كان ثمرة سيئة للعمل السيء في موالاته المنافقين والكافرين، فقال الله سبحانه في معرض الحديث عن الولاء: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

ولقد زين الشيطان لأتباعه من أهل الكتاب وإخوانهم المنافقين الردة بعد ما تبين لهم الهدى، وكان ذلك نتيجة لطاعة بعض أوامر الكارهين لما أنزل الله.

ولما كان الجزاء من جنس العمل، كان العقاب مناسباً لسببه، فاليهود اتبعوا ما أسخط الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٨].

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ﴾ [٢٥] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [٦] [محمد: ٢٥-٢٦].

فكانت النتيجة سخط الله عليهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].

فاليهود والمنافقون قالوا للمشركين -الكارهين ما أنزل الله- سرا: سنطيعكم في عداوة محمد والمظاهرة عليه، والقعود عن الجهاد^(٢).

ثانياً: آثار التقليد في الآخرة:

الحياة لا تنتهي بالموت، ولو أنها كذلك لاستراح الكثير من الكبراء وضعفائهم، إذ يقول الله عن المتحسرين النادمين يوم القيامة: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [٢٤] [الفجر: ٢٤].

والمنافقون اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا

(١) سورة آل عمران: ١٠٠، ١٤٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/٢٨٧، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/١٢٣.

فالسبب إضلال المتبوع للتابع. وكل أمة تلعن أختها في الدين والملة. فيلعن اليهود اليهود، والنصارى النصارى، والمشركون المشركين، والأتباع القادة، قائلين لهم: أنتم أقيمتونا هذا الملقى حين أطعناكم، وحينما أضللتونا في الدنيا فاتبعناكم^(١).

وبين الله تعالى التلاعن بين المتوادين على عبادة الأصنام، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فهم تحابوا على عبادة الأوثان، وتوادوا على خدمتها في الدنيا، ولأجلها عادوا دين الحق وهذا الأمر يحصل لهم مودة في دار الدنيا فقط، ثم هي منقطعة عنهم يوم القيامة، وإذا بهم يلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه، وتنقلب المودة بغضًا ولعناً.

٢. التبرؤ والحسرة.

ومن الثمار الخبيثة للتقليد والتبعية الهوجاء: التبرؤ، حيث يتبرأ المتبوعون من الأتباع، والحسرة على ما فرطوا في جنب الله تعالى. فعن تبرؤ المتبوعين من أتباعهم،

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٤، نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ٣٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٢٨٩-١٢٩٠.

فهناك الحياة الآخرة، التي ليس بعدها حياة، ولا دار، إلا الجنة أو النار. وفي هذه الدار تبلى السرائر، وتتكشف الحقائق، ويذهب الزيف والخداع، وإذا بالمقلد المتبوع يظهر على حقيقته، فهالته التي كانت في الدنيا زالت اليوم، وقوته التي صارع بها الحق في الدنيا ضعفت، وأتباعه المقلدون انكشف لهم العوار، وزال عنهم القناع الزائف، والكذب الخادع، فأخذتهم الحمية أمام هذا الموقف الرهيب، وانتفضوا على ذلتهم وصغارهم الذي كان في الدنيا، فجابهاوا أسيادهم وواجهوهم - حيث لا تنفع المجابهة ولا المواجهة - بالشتم والتلاعن والتباغض والتلاوم والتبرؤ والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب.

وهذه الآثار السيئة نتيجة للتقليد الأعمى، والاتباع المذموم، والتي يمتد أثرهما إلى يوم القيامة. وسيتناول الباحث هذه الآثار على النحو الآتي:

١. التلاعن بين الأتباع والمتبوعين.

فقد قال الله تعالى عن السبب الذي أوصل التابع والمتبوع إلى التلاعن يوم القيامة: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخْبَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَدَا بَاضِعْمَائِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ بَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أَتَيْعُوا مِنَ الَّذِينَ أَتَيْعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَيْعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعْمَلِهِمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

[البقرة: ١٦٥-١٦٧].

فهاهم -الأتباع والمتبوعون- وجهًا لوجه أمام العذاب الشديد، وحينها لم يعد نفع من التابعين لأسيادهم، وتقطع أسباب المودة التي كانت في الدنيا، فحينها يتبرأ الكبراء من الضعفاء، عليهم يخفف عنهم من عذاب التبعية ووزرها، ويتمنى التابع الكرة إلى الدنيا -ولكن هيهات- فالتابع والمتبوع في النار، كلما رأوا أعمالهم السيئة ومعاصيهم التي اتبعوا أسيادهم في فعلها، كلما ازدادوا حسرة وندامة وتقليبًا للكفين على ما أنفقوا من أعمارهم وأموالهم في مرضاة المجرمين.

ويتجلى التبرؤ الأكبر، من قائد الغواية والضلالة الأكبر: الشيطان، حينما يقف خطيئًا على منبر من نار في أهلها.

فأخبر الله سبحانه عن التبرؤ هذا فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكَو فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

[إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يجحد أن يكون شريكًا لله فيما أشركه أتباعه فيه من العبادة في الدنيا، ولم يكن له من سلطان وقوة على إجبارهم على الشرك، وما كان منه إلا أن دعاهم فقط للغواية فاستجابوا وتبعوه. فهو يتبرأ من جعل أتباعه له في الدنيا شريكًا لله، ومن طاعتهم إياه. وهذه الخطبة تزيدهم حزنًا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم.

والشيطان يزين للإنسان المعصية، حتى إذا وقع فيها تركه وتبرأ منه، فيين الله تعالى أن اتباع الشيطان في المعصية أثمر التبرؤ والخلود في النار، فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

[الحشر: ١٦].

فالشيطان يخذل الإنسان في كل حين، فهل من معتبر!.

ولك أن تتصور شدة الحسرة والندم، حينما تعلم أن القرآن العظيم صور الحسرة والندم بالعض على اليدين، فقال الله

٣. العذاب المهين والاستقبال المشين في جهنم.

عادة الحبيب أن يستقبل حبيبه بالترحاب والابتسامة والكلمة الطيبة التي تدخل السرور إلى القلب، إشعارًا بمدى محبته عنده. إلا أن الأمر يختلف يوم القيامة عند الذين رحب بعضهم ببعض على السوء في الدنيا، وفرحوا بلقاء بعضهم بعضًا على موائد المؤامرات، صادين عن سبيل الله، ماكرين برسله ودعائه، ومكذبين بآياته، ففي جهنم يكون حميم وغساق.

واستقبال المتبوعين أتباعهم بعدم الترحاب، وبالدعاء عليهم، والتذمر منهم، جزاءً بما كانوا في الدنيا يكسبون، ولكبرائهم يتبعون.

فيقول الله تعالى واصفًا حالتهم هذه:

﴿ هَذَا وَابْتَغَى الْوَالِدِينَ لَسْرَمَاتٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسْأَلُونَ لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ أَنزَلْنَا هَذَا فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ فِيهِمْ صَالُوا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنشَرَكُم مِّنْ أَرْضٍ مَّعْرُوبَةٍ قَدْ مَتَّعْنَاهُمْ لَنَّا فَيَسْأَلُونَ لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَوَدِدْنَا عَذَابًا يُضَعَّفَانَا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ [ص: ٥٥-٦١].

تقول خزنة جهنم لرؤساء الطغيان والكفر: هذا فوج من أتباعكم الذين أضللتموهم، اقتحموا معكم النار، كما اقتحموا معكم الجهل والعصيان، فعندها

سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

يقول الطبري: «ويوم يعص الظالم نفسه، المشرك بربه، على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا يعني: طريقًا إلى النجاة من عذاب الله»^(١).

ويظهر تبرؤ المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة، حينما يناديهم الله عز وجل بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فيقولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ [القصص: ٦٢-٦٣].

فالأيات توضح إغواء المعبودين لمن أشركهم بالله وجعلهم له نداءً، في الدنيا كما غوواهم، وعند مواجهة استحقاق العذاب، اعترفوا بهذه الغواية، وتبرؤوا من عبادتهم، لما رأوا العذاب وندموا أشد الندم، وتمنوا أن لو كانوا مهتدين.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/٢٦٢.

مواطن من كتابه الكريم، منها: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْل رَبِّنَا إِنَّآ لَنَآقِبُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) [الصفافات: ٢٧-٣٤].

أي: أقبل الأتباع على المتبوعين يتساءلون لاثمين إياهم بقولهم: كتمت تزينون لنا الباطل، وتحولون بيننا وبين الخير؛ فأطعناكم في ذلك. فرد المتبوعون عليهم بأنكم ما كتمت صالحين فأفسدناكم، ولا مؤمنين فكفرناكم، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للعصيان. وكذلك لم يكن لنا عليكم من حجج قوية ألزمتناكم بها بأن تتبعونا على الكفر، فحق العذاب علينا جميعاً بسبب أننا كنا غاوين، فدعوناكم إلى الغواية دون قهر ولا سلطان فاستجبتم لها فنحن في العذاب مشتركون، كما اشتركتنا في الصد عن سبيل الله في الدنيا، والكفر والضلال^(٢).

والتخاصم وتراجع الكلام بين المستضعفين والمستكبرين، تذكره آيات أخرى.

تقول رؤوس الكفر: لا مرحباً بهم أي: لا رحبت بكم الأرض ولا وسعت، وضافت عليكم أماكنكم. فترد الأتباع الدعاء عليهم بأن لا مرحباً بكم أنتم، معللين هذا الرد بأنكم أيها الرؤساء قدمتم لنا هذا العذاب؛ إذ بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتموه لنا، ودعوتمونا إليه، وإلى العمل الذي يوجب لنا هذه النار. والدعاء بالضيق وعدم الكرامة، تبعه دعاء آخر، وهو من قدم لنا هذا العذاب أي: سنه وشرعه فزده عذاباً ضعفاً في النار^(١).

إنها صورة بائسة، معكوسة لما كان في الدنيا، التي كان فيها الترحاب والقبالات، والفرح الشديد عند الإساءة للرسول والدعاة وإصابة الهدف بدقة للخطة الماكرة، مع زيادة الرتبة والراتب من المتبوع للتابع المنفذ. فأين اليوم التصفيق للخطابات! وأين الحراسات! وأين اليوم الفداء بالأرواح والمهج والأنفس!

٤. التخاصم والتلاوم.

أمام الموقف الرهيب، الذي يقترن فيه كل مع شاكلته في المعاصي والآثام، وترتفع الأصوات المتلاومة كل يلقي بالثبعة والمسؤولية على غيره في السبب الذي أوصلهم إلى هذا العذاب الأليم. هذا التخاصم والتلاوم يذكره الله تعالى في

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣١/٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/٤.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ١٥٢/٧، اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم، ص ٢٩.

المستكبرين: ﴿بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ بل مكرم الذي لم يفتر ليلاً ولا نهاراً للصد عن الهدى، ولتمكين الباطل، ولتليس الحق، ولا استخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء.

وقول الله سبحانه: ﴿بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ﴾ كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك بالشرك.

عندها خاف الخصمان من الفضيحة في الموقف فأسروا الندامة في قلوبهم وصدورهم كمدًا، وهذا من الذلة بمكان. ومن ثم كانت الأغلال التي تنتظرهم؛ لتغل بها الأيدي إلى الأعناق، ويلقى بهم إلى جهنم جزاءً لأعمالهم الخبيثة التي كثروا بها سواد المستكبرين من القادة والمتبعين في الدنيا، فما أغنى تقليدهم عنهم شيئاً.

وذكرت الآية الليل والنهار، لبيان كثرة المكر وتواصله وعدم يأس أصحابه المجرمين، لنعلم نحن المسلمين في هذا الزمان، مدى ما يمكر بنا، ويحاك ضدنا من مؤامرات، مؤامرات عسكرية وإعلامية واجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية، لكل منها مختصون وأهلون. ونتيجة هذا المكر الخبيث يوم الحسرة: التخاصم والتلاوم والأغلال والعذاب الشديد جزاءً وفاقاً.

يقول الله فيها: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزَمُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[سبأ: ٣١-٣٣].

ولو رأينا، لرأينا موقفًا يحول دونه الوصف ويعجز عنه التصور، حيث المضللون من المستضعفين والمضللون من المستكبرين، والمحاجة بين الخصمين على أشدها في التلاوم وإرجاع الكلام، إذ يقول التابع المستضعف - وقد أخذته بعض شجاعة-: لولا أنتم لكانا مؤمنين، فقد كنتم شديدي الحرص على كفرنا لنقلدكم فيه، ولولاكم أيها الرؤساء في الدنيا لكانا مؤمنين بالله وآياته. فكان رد المستكبرين: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾.

والاستهفام استنكاري، إنكاراً للتهمة، وردًا على الأتباع بأنكم كنتم مجرمين، فإجرامكم هو الذي صدكم عن الإيمان. فكانت مجابهة المستضعفين على رد

مواجهة التقليد والتبعية

الأمم تصح وتمرض، تبتلى وتعافى، ومن أراد السلامة فلا بد له من وقاية نفسه من المرض، ولئن أصابه؛ فإنه يحرص على الاستشفاء. والأمراض التي تصيب الأمم كثيرة، منها- كما أخبر القرآن الكريم- مرض التقليد والتبعية العمياء الذي يوهن العقول، ويذيب الشخصية، ويضعف الإرادة؛ فتتبع سبل سابقها وكبرائها، وتنحرف عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده. ولقد وقع في هذا الأمر كثير من القرون، فأصاب القرون اللاحقة المقلدة، ما أصاب القرون السابقة المقلدة في المعاصي والذنوب، حينما لم يعتبروا ولم يتعظوا بالهالكين قبلهم.

وجاء القرآن الكريم يقص علينا أمراض الأمم التي أصيبت بها وعوقبت عليها؛ لتكون آية وموعظة للمؤمنين. فكان ذلك دواء من الأدوية التي وصفها لنا القرآن الكريم لتتعافى مما ابتلي به كثير من الخلق. وحتى يثبت الشفاء ويزداد، كان لا بد من وجه مضاد لوجه أئمة السوء والشر، وهم أئمة الهدى، ولا بد من إظهار الصورة المنفرة للمقلدين أيضًا؛ زجرًا لهم، وردعًا لغيرهم. وكذلك لا بد من بيان المسؤولية الفردية التي يتحملها كل فرد عن عمله. ومن هنا فقد جاء هذا المبحث في أربعة مطالب:

أولاً: الاعتبار بمصارع القرون الأولى:

قص علينا القرآن الكريم قصصًا للغابرين، أظهر فيها عليهم، التي كانت سببًا في دمارهم واستحقاقهم العقوبة من الله تعالى. وقصصهم هذه، فيها الإرشاد والتوجيه للخلق ألا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء السابقون من العلل؛ حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

ولقد عذب الله تعالى الأقسام بأنواع مختلفة من العذاب، كل بما يناسب ذنبه حيث يذكر الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فقوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود أهلكوا بالصيحة، وقوم نوح بالطوفان، وقوم فرعون بالغرق، وجعل ديار قوم لوط عاليها سافلها. وهذه الألوان من العذاب، ليست من الظالمين ببعيد.

وسبب هذا العذاب: كفرهم، وعتوهم عن أمر ربهم، وعصيان رسله، وتكذيبهم بآياته، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وكل هذا لم يكن ليقصه الله عبثًا- وحاشاه-، بل كان ذلك للموعظة ولتكون آية، آية للمؤمن ليصبر على ما يلقاه في

يديه لجزره عن ظلمه، وليت الأمر بقي على ذلك، بل وصل الأمر إلى التزلف والتملق للظلمة، والمداهنة لهم، ورفع قدرهم، واعتبار زيارتهم، والجلوس معهم مفعرة، فكان حري أن يعم العقاب، حيث التشريد والشتات، وأن يحل العذاب، حيث التشرذم والتفرق، والتقاطع والتدابير. ولا يدفع ذلك كله إلا الإجابة إلى العزيز الغفار، وترك التشبه بمن ظلم نفسه من الأمم السابقة.

وخاطب الله تعالى المنافقين بأن يعتبروا بما حل بالأمم من قبلهم، حيث قال: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحُوا وَعَادُوا وَنُوحُوا وَفُورُوا إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤَفَّفِينَ أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠].

فأهل النفاق مطالبون بالانعاز مما أصاب الذين ذكرتهم الآية وأتهم الرسل بالبيئات، فردوها كفرًا وظلمًا؛ فكان الغضب الإلهي، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وسياق الآية وإن كان يتحدث عن المنافقين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمنافقون وغيرهم في كل زمان عليهم الاعتبار.

ولم يكن الظلم وحده سببًا في الهلاك، بل والتكذيب بآيات الله ورسله أيضًا والذي حذر منه القرآن الكريم. وأمر الله تعالى

سبيل الله من أذى، إذ إنه مطمئن لوعده ربه أن العقابة للمتقين، ويقتدي بمن سبقه من المؤمنين الصابرين، وليزداد خشية وإيمانًا، وآية لغير المؤمن لعله يزدجر عما يقترف من آثام وسيئات.

ومن أسباب الهلاك الظلم والكفر، فقد قال الله سبحانه عن قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْشُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

يخبر الله تعالى أن الحجارة التي أصابت قوم لوط حاضرة لكل ظالم طغى وتجبر، وهي بانتظار كل من حاكى فعالهم. فالله سبحانه لا يحابي أحدًا من الخلق، وليس بينه وبين أحد نسبًا.

والظلم ذنب عظيم يعذب الله تعالى بسببه الظالمين، ويعجل لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩].

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)^(١).
واليوم لا نرى ردعًا للظالم، ولا أخذًا على

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٤٠، ٤/٢١٤. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/١١٥.

بالسير في الأرض للاعتبار بمن أصابهم
سخط الله وغضبه بسبب تكذيبهم الرسل،
فقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ
﴿١١﴾ [الأنعام: ١١].

وكل موضع أمر فيه بالسير في الأرض،
فإنه يدل على الاعتبار والحذر، أن يحل
بالمخاطبين من أفعال الله مثل ما حل
بالسابقين^(١) وسمى القرطبي السير في
الأرض: «سفر العبرة»^(٢).

وسورة الشعراء جاءت آيتها السادسة
تهديداً لمن كذب الرسول صلى الله عليه
وسلم قريش، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦].

ومن ثم ذكرت تكذيب الأقوام لرسولها
فيما بعد^(٣)، فأهلكهم الله بهذا التكذيب.
ويقول الله عز وجل عن عادة آل فرعون
والذين من قبلهم في التكذيب بآيات الله
وإهلاكهم بسبب ذلك: ﴿كَذَّابٌ آءَالٌ
فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ
كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

ولما تشابه حال قريش، بحال آل فرعون
والذين من قبلهم في التكذيب والكفر، كان

(١) انظر: إلام السومقين، ابن القيم، ١٤٧/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢٥/٥.

(٣) انظر: سورة الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١،
١٦٠، ١٧٦.

تغيير حالهم جميعاً بالعذاب؛ فهم غيروا
أوامر الله وشرعه، فغير الله حالهم؛ جزاءً
وفاقاً لجنس عملهم. فعلى كل من يريد
النجاة مما حصل للقرون السالفة عليه أن
يتقي الله تعالى ويكون مع الصادقين، وألا
يكون كآل فرعون والذين من قبلهم في
التكذيب.

ومن أسباب الهلاك التي حذرنا القرآن
منها: الترف والبطر، يقول الله سبحانه:
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [١٦]
[الإسراء: ١٦].

أي: أمرنا المترفين بطاعة الله وتوحيده،
وتصديق رسله واتباعهم، فخرجوا عن طاعة
ربهم وعصوا أمره، فوجب عليهم عذاب
الاستئصال. وأكد فعل التدمير بمصدره
للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم^(٤).

وجاءت الآية التي تلي السابقة محذرة
مما أصاب القرون الأولى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا
مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١٧]
[الإسراء: ١٧].

والله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم من عقيدة صحيحة،
وعبادة مشروعة، وأخلاق حسنة، إلى
ضدها؛ فإن فعلوا عاقبهم الله تعالى، بتغيير
حالهم.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١٤١/١٨.

تشابهت في جريمة بطر النعمة و كفرانها، فيقول عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرَبِكُمْ بِطَرْتِ مَعِيشَتِهَا فَلَنِكَ مَسَلَكْتُهُمْ لَمْ نَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وأرسل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لأهل مكة التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان^(١)، فكذبوا به، وجحدوه رغم معرفتهم بصدقه وأمانته، فأبدل الله رغدهم جوعاً، وأمنهم خوفاً.

وفي المقابل انقلب حال من اتبعوه من المؤمنين من خوف إلى أمن، ومن ضعف إلى قوة، ومن قلة إلى كثرة، ومن هزيمة إلى نصر: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَخَافُوا أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَاءُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيِدِكُمْ بِبَصْرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وختم الآية بالشكر، وهذا الذي يناسب ذكر النعم وزيادتها.

ومن المنكرات الخطيرة المعلنة: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد قص الله علينا نبأ بني إسرائيل حينما تركوا هذا الواجب، فانتشر الفساد بينهم، فلعنهم الله، وضرب قلوب بعضهم ببعض.

فقال الله سبحانه مخبراً عن ذلك: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

يقول المولى عز وجل: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغْتَابًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفْرِقُوا مَا بَيْنَهُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

جاءت هذه الآية بين آيتين تبدأ كل منهما بقول الله سبحانه: ﴿كَذَّابٌ﴾ **ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** عاقبهم الله بكفرهم وتكذيبهم بآيات الله، وغيروا أحوالهم من الصلاح إلى الفساد، فغير الله ما بهم من النعم إلى النقم.

وجاء الزجر الشديد لأولئك المغترين بأموالهم وأولادهم، بأنه كان من قبلكم من هو أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرتموها أنتم، فلما عصوا رسل ربهم، وجحدوا آياته عاقبهم الله تعالى، ولم يكن لهم من دونه ولي ولا واق، ولم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم من الله شيئاً.

فطلب الله تعالى من هؤلاء المغترين أن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمن سبقهم، ممن هو أكثر منهم أموالاً وأشد منهم قوة.

فقال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

ولقد أهلك الله تعالى قرى كثيرة

(١) وانظر: سورة النحل: ١١٢.

عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) (١).

فعلى الأمة في هذا الزمان أن تحسب لنقم الله وغضبه الحساب الذي يليق، ولا تبقى شاردة في غيرها وضلالها، وألا تتبع الذين ظلموا أنفسهم، بل تتبع سبيل من أناب إلى الله. وعلى تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتقاداً منهم النجاة من أذى الظلمة، أن يعلموا أن الفساد الخلقي سيصيبهم؛ والفساد الخلقي أشد وأخطر من الأذى الجسدي، فالأول يربي على الركون إلى الظلمة، والثاني يربي على التحدي والاستعلاء بالإيمان.

والمستقرئ لكتاب الله تعالى، يرى التعقيب على قصص الغابرين يدعو إلى الصبر وأخذ العبرة. فبعد إغراق قوم نوح،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٦٨/٤، ٢١٦٩. قال الترمذي: «هذا حديث حسن». ٤٦٨/٤.

يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وتعقياً على هلاك ثمود، قال الله سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

وكذلك الأمر بعد هلاك فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٥٥﴾﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وتعقياً على هلاك قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

وعن بدر، وبعد هلاك صنديد قريش، قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِي إِلْتِقَاءَ فَتَةٍ تَتَدَلُّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَتْ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّنْ جَانِبِ غَابٍ مِنَ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ بِيُونُسَ وَمِنْ يَمِينِهِ مَن يُشَاكِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

وبعد هزيمة يهود في خيبر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأُولَى الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَن يَمُزَّجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُونُسَ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاصْبِرُوا يَتَّوَلَّى الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وطريق الأنبياء عليهم السلام محفوظ بالأذى الجسدي، أما الإيمان فمقره القلب،

قدوة، جعل الله تعالى لهم صفات، وآناهم بينات من الهدى، فقال سبحانه مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر ثمانية عشر نبياً ممن سبقوه^(١): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ آفَقَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يقول الطبري: «هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه... فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم ﴿آفَقَةٌ﴾ يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه»^(٢).

ويبين الإمام الرازي أن صفات الشرف وخصال الكمال هذه كانت مفرقة في الأنبياء بأجمعهم. فأيوب كان من أصحاب الصبر. وداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر. وسيدنا يوسف كان مستجمعاً لهاتين الصفتين -الصبر والشكر-. وموسى كان صاحب الشريعة القاهرة والمعجزات الظاهرة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب زهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس كان صاحب التضرع. وبعد

ولا سلطان لأحد عليه إلا الله، يقول الله سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَى﴾ [آل عمران: ١١١]؛ فعلى المؤمن أن يتأسى بطريقهم عليهم السلام؛ فهو الطريق الأسلم والأقرب للنصر في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

ثانياً: القدوة الحسنة:

السنة أن يكون للناس إمام يؤمهم، يحاكون فعله وقوله، ويتبعون أمره، وينصرون فكره. والإمام هذا أحد نوعين -كما سماهم القرآن الكريم- أئمة يدعون إلى النار، وأئمة يهدون بأمر الله.

وأئمة الهدى حتى يستطيعوا تغيير ما أفسده الناس، ويحيلوا طريقهم المعوج إلى استقامة؛ لا بد أن يكون معهم المنهج الواضح البين، الذي يقنع الناس المضللين بأن ما هم فيه ضلال. ويبقى المنهاج جافاً حتى يتحول إلى بشر تمشي على الأرض. فكان هذا الأمر مع أنبياء الله عليهم السلام ومع الذين ربوا على أيديهم من أتباعهم المؤمنين؛ ليكونوا قدوة حسنة للناس من بعدهم في كل جيل.

والأنبياء أحسن الناس خلقاً وإيماناً، وأعلاهم منزلة، والواجب أن يتأسى بهم الناس، وأن يتبعوهم في فعلهم وقولهم، ويتركوا الاقتداء بأئمة الكفر. وحتى يكونوا

(١) انظر: الأنعام: ٨٤-٨٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/٥١٨-٥١٩.

وانظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٢٧٢/٨.

سواءً أكان المعبود بشرًا - كعبادة الزعماء في بعض الدول - أم عبادة المؤسسات - كالتي تشرع من دون الله. وأن تستمر البراءة من ذلك أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

وعلينا أن نفتدي بإبراهيم والذين معه في خصال الخير، في عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وفي التبرؤ من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته، وأن نتشبه بهم في التوكل على ربنا، وفي الإنابة إليه، فالمصير إليه.

ونفتدي بهم في مناجاة ربنا ألا يجعلنا فتنه للقوم الكافرين، وأن يغفر لنا: ﴿الْأَقْوَلُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ لَاسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلَكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَرَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا تَشَاءُ وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

وأول سورة الممتحنة نزل في حاطب بن أبي بلتعة^(٢)، الذي والى أهل مكة في محاولة إنبائهم سير النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، فكان التوجيه الرباني في هذه الآية إلى المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في البراءة من المشركين.

وكانت الوصية الربانية، في اتخاذ الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة في سورة الممتحنة نفسها، فقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ

ذكرهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم ﴿فِيهِدْتُهُمْ أَقْتَدَ﴾، أي: اقتد بكل هذه الصفات المفرقة فيهم؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أفضلهم^(١).

ومن الصفات التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وأمرنا أن نتأسى بهم فيها، البراءة من الأعداء، وإظهار العداوة والبغضاء بيننا وبينهم أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

فالمؤمنون عليهم التأسى بإبراهيم والذين معه في عدم الرضا بعبادة الأصنام، وأن يتشبهوا بهم في البراءة من الكفار في كل الأحوال، حتى وإن كانوا ضعفاء، أيًا كان الضعف، سواءً أكان ضعف النصر، كما كان زمن النبي صلى الله عليه وسلم في الفترة المكية، أم ضعف الإرادة، كما هو حال مسلمي اليوم.

وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في عظمة البراءة، وألا تكون على خجل، كما يصنع بعض الناس اليوم. وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في الكفر بجميع المعبودات،

(٢) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص ٢٥٦.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/٥٨.

وفي مجال الأخلاق، كان النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى فيها كلها، وكيفية شرفاً أن زكى الله خلقه فقال: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وحرف الجر يفيد الاستعلاء، فكأنه صلى الله عليه وسلم اعتلى الأخلاق كلها، وكلمة عظيم توحى بشأن هذه الأخلاق العظيمة؛ فهو صلى الله عليه وسلم صاحبها الذي امتلأت حياته بها.

وفي مجال التعامل، كان صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة. فكان بأشأ مع أصحابه، محترماً إياهم، محباً لهم، ملياً حاجاتهم. وغير ذلك من مجالات الاقتداء التي يستطيع كل فرد في المجتمع -أياً كان مركزه وعمله- أن يقتدي به صلى الله عليه وسلم، سواءً أكان زوجاً أم أباً أم جازاً أم مريباً أم قائداً أم مجاهداً.

وختمت صفات عباد الرحمن بدعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم: ﴿وَجَمَعْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال البخاري: «أئمة يقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا»^(٣).

وصفات العباد الذين نسبهم الرحمن لنفسه هي: التواضع، ومخاطبة الجاهلين بالسلام، والدعاء، والاعتدال، في الإنفاق

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٨/ ١٣٩.

كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ ﴿الممتحنة: ٦﴾.

فالذي يقتدي بأئمة الهدى هؤلاء، هو من آمن بالله واليوم الآخر. وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، إنما تسهل على من آمن واحتسب الأجر^(١).

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، وأكرمهم على الله تعالى، ولما كان على خلق عظيم، جاء التوجيه الرباني بتخصيصه أن يكون أسوة حسنة.

فقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولكي يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، فقد أهله الله لذلك في كل ميدان من ميادين الدين والدنيا. ففي مجال الثبات على العقيدة وعدم التنازل عنها، ثبت أمام مغريات المال والجاه والنساء التي عرضت عليه مقابل ثنيه عن الدعوة، وثبت ولم يساوم^(٢).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ
١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُونَ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ
٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٥٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٣٠.

ولا يشركون ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، وكذلك من صفاتهم التوبة وعمل الصالحات، ولا يشهدون الزور، والإعراض عن اللغو، والإصغاء لآيات الله^(١).

وختم هذه الصفات بدعاء ﴿وَلَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الصفات هي جزء من صفات عباد الله الواجب على الناس أن يتبعوهم فيها، والتي تؤهلهم للإمامة وقيادة الناس.

واليوم يعيش المسلمون أزمة قدوات فصار جزء منهم يقتدي بمن فسدت عقائده، وساءت أخلاقه، وراج سوؤه. فصار باطن الجيل وظاهره مقلداً للكفر، ولدعاة على أبواب جهنم. وحتى يحسن حالنا، ويسوء وجه عدونا؛ لا بد من أئمة للهدى يقتدي بهم التائهون، ويؤوب إليهم المرضى بهم يستشفون.

وأئمة الاقتداء والهدى هؤلاء، لا بد لهم من صفات يتصفون بها، وسمات تعلق باطنهم وظاهرهم، ومنها:

١. أن تتحدث عنهم أفعالهم أكثر من أقوالهم.

٢. ألا يخالف فعلهم قولهم، اقتداء بشعيب عليه السلام الذي ذكر الله قبله لقومه: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَ كُمْ إِلَّا مَا أَنهَنكُمْ

عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣. أن يكونوا على خلق عظيم، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي زكى الله أخلاقه فقال: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

٤. أن يكون القدوة حراً طليقاً من القيود المذلة، كالمهنة التي تحجبه عن قول الحق، اقتداءً بالرسول عليهم السلام الذين خاطبوا أقوامهم: ﴿قَدْ لَأَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذه الآية نفسها التي تبدأ بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾، والتي تم الحديث عنها سابقاً.

٥. العلم: كما أمر الله تعالى نبيه - وكل من يصلح له الخطاب - بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فقدم العلم على التوحيد؛ إذ لا نعرف التوحيد إلا بالعلم؛ لذا كان أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ﴾.

وغيرها من الصفات التي تؤهل المسلم ليكون قدوة للمتمقين.

ثالثاً: إظهار الصورة المنفرة للمقلدين:

أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨].

وعلى الإنسان أن يقوم بواجب الشكر لله

(١) انظر: سورة الفرقان: ٦٣-٧٤.

إن تفضيل الله تعالى للأنعام على من أنكر حق الله تعالى في الوجود، وفي العبادة متبعًا في ذلك غيره، ومعطلًا ما وهبه الله من حواس، لهو تفضيل في غاية البشاعة والازدراء، فناسب تعطيلهم الحواس، تصويرهم البشع بأنهم أضل من الأنعام، فلو كان عندهم شيء من الإحساس والأنفة والعزة، لاهتزت مشاعرهم، وانتفضت قلوبهم الصدئة على تبعية عمياء، وجاهلية حمقاء، ولأنصت السمع للحق، ولنطق به اللسان، وعملت به الجوارح. يقول عبيد الله بن المعتمر: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد»^(٣).

وقريب من آية الأعراف السابقة، آية الفرقان التي يقول تعالى فيها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَبْقُلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٤) [الفرقان: ٤٤].

والملاحظ أن كلتا الآيتين جاء فيهما الإضراب لزيادة الذم. أما ارتباط الآيتين بما قبلهما، فقد جاءت آية الأعراف السابقة بعد الحديث عن الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وآتاه الله علمًا لكنه أخذل إلى الأرض متبعًا هواه^(٤)؛ فلما كان حاله ترك آيات الله، واتباع هواه، شبهه

على هذه النعم، وشكرها يكون باستعمالها فيما أمر الله، فإن استعمالها صاحبها في غير ما أمر الله تعالى فقد كفر هذه النعمة، وحينها يستحق الذم.

ومن النعم التي أنعم الله بها على الإنسان السمع والبصر والعقل؛ لتكون له عونًا على اتباع الحق، واجتناب الباطل، ومن عطلها عن هذه الوظيفة التي خلقت لأجلها؛ فقد شبهه القرآن الكريم بالبهائم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَأْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١) [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها الخير والهدى، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها مواضع القرآن سماع اتعاض. هؤلاء مثلهم كمثل الأنعام لا تفقه ما يقال لها. بينما الأنعام وهي غير مكلفة، طائعة لربها، وهي مفطورة على ذلك؛ فهي: «تبصر منافعها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك»^(١).

ووصفهم الله تعالى بالغفلة الكاملة، فهي خاصة بهم ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠٦/٧.

وانظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٥٩/٣.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٧٧/٣، نظم

الدرر، البقاعي، ١٥٩/٣.

(٣) أضواء البيان، الشنيطي، ٣١٢/٧.

(٤) انظر: سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٩.

سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

يقول الرازي: «ضرب لهم هذا المثل تنبيهاً للسامعين لهم إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزل الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»^(٢).

هؤلاء المقلدون عطلوا حواسهم-التي خلقها الله لهم ليتفكروا بها- واتبعوا آباءهم مقلدين لهم دون وعي وتفكير، ولم يتبعوا الرسل معاندين لهم. فهم صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به والدعوة إليه، عمي عن اتباعه؛ لأجل ذلك وصفهم القرآن في سورة الأنفال: بأنهم من الدواب، وأنهم شرها.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

ويلاحظ أن آيتي البقرة والأنفال وصفتا المقلدين بالصم والبكم وعدم العقل، وهذا الوصف يليق بهم في الدنيا إذ إنهم كذلك. أما يوم القيامة حينما يرون ما وعدهم ربهم

الله تعالى بالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وهذا مثل في غاية السوء، وهذا استنفار لذي الحجر؛ ليقلع عن كل عمل يوصل إلى مثل هذا الحال. أما آية الفرقان فقد سبقتها آيات تخبر عن استهزاء الكفار بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ووصفهم إياه بالضللال، واتخاذهم الهوى إلهاً من دون الله، فكان الرد الرباني عليهم بأنهم من الجهل بمكان وأنهم أضل من الأنعام سبيلاً. يقول سعيد حوى: «إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال، وترك أمر الله يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة»^(١).

ولم يكتف القرآن الكريم بتشبيه الذين يتبعون آباءهم -معرضين عن داعي الله تعالى لهم باتباع ما أنزل الله- بالأنعام، بل شبههم أيضًا بالذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً. وهذه الصورة منفرة من التقليد الذي لا يقوم على دليل، قال سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

والآية هذه سبقت بالآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/٥.

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم، حوى، ص ٩.

التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا يَتَّبِعُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ ﴿
[الجمعة: ٥].

فالله تعالى كلف اليهود بالعمل بما
في التوراة، ومن ذلك اتباع النبي صلى
الله عليه وسلم، إلا إنهم كتموا، وحرفوا
وبدلوا، وظاهروا المشركين على المسلمين
فلما كانوا كذلك، شبههم بالحمار يحمل
أسفارا، لا يدري ما يحمل ولا يتتبع بما
يحمل، إنزالا من قدرهم، وخطأ من شأنهم.
والحمار يضرب به المثل في الجهل والبلادة
والحقارة^(٣).

والغاية من ذلك تحقير المقلد ليكون
ذلك أدعى لدفعه لترك التقليد. وهذا المثل
فيه ترهيب للمسلمين من أن يتهاونوا بشيء
من أحكام القرآن؛ فيكونوا أكثر سوءاً من
اليهود؛ ومن ثم يكونون دون الحمار؛
فرسولهم صلى الله عليه وسلم أعظم،
وكتابتهم أعلى.

وفي الأمة الإسلامية اليوم من يحفظ
كتاب الله تعالى ويعلم ما فيه، إلا إنه يخالفه
في عمله وأخلاقه وتصرفاته وتصوراته،
فشابه اليهود في هذه الصفة المذمومة.
وعليه أن يعتبر ويتعظ ويعمل بما علم،
كي لا يلحقه من الذم ما لحق اليهود.

(٣) انظر: اللباب في العلوم الكتاب، ابن عادل،
٧٦/١٩.

من النار، فإنهم يحسنون استعمال سمعهم
وعقولهم؛ فيندمون ولات حين مناص.

يقول الله تعالى واصفاً حالهم هذه:
﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ
﴿١٠﴾ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الملك: ١٠-١١].

وفي هذا أكبر الزجر لأولئك المقلدين،
كي يتوبوا من غيهم، ويفيقوا من غفلتهم
ولا يكونوا إمعات^(١) معطلين لأسماعهم
وأبصارهم وأفئدتهم، متبعين كل ناعق.
ويخرج عبد الله بن مسعود رضي الله
عنه الإمعة من زمرة العلماء والمتعلمين
حينما يقول: «اغد عالماً أو متعلماً ولا
تكونن إمعة»^(٢).

ولقد صور الله تعالى الكافرين بصورة
مزرية، حينما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].

فهم كالبهائم لا هم لهم إلا شهوة البطن
والفرج، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

ولئن شبه المتبعون غير ما أنزل الله،
بالأنعام، فقد كان للحمار دور في التشبيه
به أيضاً. فالله تعالى وصف اليهود الذين لا
يلتزمون أمره بالحمار في الحقارة والبلادة
والجهل، قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا

(١) جمع إمعة وهو: الذي لا رأي له ولا عزم، فهو
يتبع كل أحد، ولا يثبت على شيء.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/٨.
إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢/٢٦٨.

رابعاً: إعلان المسؤولية الفردية:

المسؤولية الفردية تعني تحمل الإنسان تبعه معتقداته وأفعاله وأقواله، في الدنيا والآخرة، ولا يشاركه أحد في ذلك. ومن عدل الله تعالى أن أرسى هذا المبدأ، فلا يحمل أحد وزر أحد.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

فالآية تحث المقلد على الانتباه، وعدم الانجرار وراء الناعقين دون وعي وإدراك، لأن المتبوع لن يحمل شيئاً من أثقال التابع وأثامه. والمقلد غيره على غير هدى، يتحمل تبعه تقليده، ولا يغني عنه المتبوع شيئاً، فهو أضعف من أن يدفع العذاب عن نفسه، فضلاً عن أن يدفعه عن غيره.

هذا المبدأ الرباني وردت آيات كثيرة تقره وتعلنه، وضرب الله تعالى أمثلة عدة توضحه، تمثلت في أولي العزم من الأنبياء كإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونوح عليه السلام مع ولده وزوجه، والنبي صلى الله عليه وسلم مع عمه؛ ليكونوا أسوة حسنة لغيرهم من المؤمنين في التبرؤ من المشركين. فإبراهيم عليه السلام خاطب أباه أنه لا يملك له من الله شيئاً، فقال سبحانه: ﴿إِنِّي قَوْلٌ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحفة: ٤] فهو - على مكانته من الله تعالى - لا يستطيع أن يمنع

أدنى شيء عن أبيه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، وفي هذا إظهار لمبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمال. والتعبير في الآية عن الملك ﴿وَمَا أَمْلِكُ﴾ ليظهر أن الكل ملك لله تعالى، والمرء لا يملك نفسه التي بين جنبيه، فكيف يملك غيرها ليرد عنها العذاب. وهذا فيه تحذير للمغرورين في الدنيا وتبعية أهلها ألا تعملوا إلا وفق ما أراد المالك سبحانه، لأن مخالفته تعني تحمل النتيجة من العذاب.

أما بالنسبة لمبدأ المسؤولية على مستوى البنية، فقد قدم القرآن الكريم صورة نوح عليه السلام مع ولده الكافر الذي ناداه للنجاة من الغرق كما أخبر القرآن الكريم: ﴿يَبْنَؤُكَ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

فنوح عليه السلام أمر ولده أن يتبع سبيله، وألا يتبع سبيل الكافرين، إلا أن الابن كان مطيعاً للكافرين لا لأبيه، فكانت النتيجة أن هلك مع الذين كثر سوادهم، واتبع سبيلهم، وأطاع أمرهم من الكافرين، ولم تنفع قرابة الأبوة شيئاً، حتى مجرد المناجاة التي كانت من نوح عليه السلام لربه لم تستجب، والتي ذكرها القرآن العظيم: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْمُنْكَرِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

[هود: ٤٥-٤٦].

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ
الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ [التحریم: ١٠].

إن الصلة بين الزوجين صلة متينة قوية،
والعلاقة بينهما علاقة حميمة، وكلًا منهما
لباس للآخر، يسترها وتستره، هذه المودة
لم تكن لتجدي نفعًا عند الله تعالى حتى في
ظل النبوة والرسالة.

ورغم أن الزوج نبي مرسل من عند الله
تعالى، إلا إنه لم يستطع أن يغني شيئًا من
عذاب الله تعالى عن عاش معها حينًا من
الدهر، حينما اختارت الكفر على الإيمان،
ورضيت لنفسها طريق الكافرين على طريق
المؤمنين، واتبعت خطوات الشيطان،
وكفرت بخالفها وعصت زوجها إذ دعاها
إلى الإيمان.

فالتيجة لم يحمل من آثامها وأثقالها
شيئًا، وحصدت هي وحدها -ووحدها
فقط- ثمرة غراسها السيء ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا
النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾. بينما هو النبي كانت
له ثمرة غراسه الطيب رضوان الله تعالى
والفوز بالجنة لطاعته ربه، ومخالفة الهوى
والكافرين. يقول الله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي
كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:
١٧].

ويقول سبحانه: ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
نَسَعَتْ﴾ [طه: ١٥].

فكان التسليم المطلق من النبي الطائع
بعدها مباشرة لأمر الله، والإنابة إليه من
ندائه هذا، فقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ
بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي
وَتَرَحَّمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ [هود:
٤٧].

نوح هذا الذي هو من أولي العزم لم
يستطع أن يرفع العذاب عن ابنه الذي هو من
صلبه، ولم يستجب دعاؤه في أكثر الناس
قربًا له، فكانت الثمرة أن تحمل الولد وزر
نفسه، وثمره اختياره، وكان والده من الذين
رضي الله عنهم، بينما ولده من الذين غضب
الله عليهم فأهلكه معهم.

وأكد القرآن الكريم هذا النموذج في
المسؤولية الفردية بين الابن إبراهيم عليه
السلام وأبيه الكافر، وبين الأب نوح عليه
السلام وبين ابنه الكافر، حينما جعله مبدأ
عامًا بين كل ابن وأب، وبين كل أب وابن،
فقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ﴾ إلى قوله
تعالى: ﴿وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

كذلك كانت المسؤولية الفردية على
مستوى الزوجية، ولم يغن الزوج النبي عن
زوجته الكافرة شيئًا، فقال الله سبحانه عن
الزوجتين الكافرتين لنوح ولوط عليهما
السلام: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا
أُمَّرَاتَ نُوحٍ وَأُمَّرَاتَ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْهِ

لكم فرط على الحوض، فيأبي لا يأتين أحدكم فيذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً^(٢)

ولو أن أحداً يملك لأحد شيئاً، لكان هذا الأمر من سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الذي دافع عنه في أيام الدعوة الإسلامية الأولى دفاع المستميت، إلا أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الاستغفار لعمه أبي طالب حينما مات على الكفر وعلى ملة الآباء والأجداد.

قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وسبب النزول أنه: «لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: أي عم قل معي: لا اله إلا الله، أحاج لك به عند السله. فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته، رقم ٢٢٩٥، رقم ١٧٩٥/٤.

كذلك الأمر كان بالنسبة لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم حينما جمع أهل مكة وحذرهم وبين لهم حقيقة المسؤولية الفردية للأعمال، وأنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأن الجميع: ﴿ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وأن ﴿لِكُلِّ أُمَّرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾ [عبس: ٣٧].

فقال صلى الله عليه وسلم مؤكداً هذا المبدأ: (يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشترتوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمه رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً)^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم على قدر كرامته عند الله تعالى، وهو أحب الخلق إليه؛ إلا إنه لا يغني عن أقرب الناس إليه شيئاً، فكيف بالأبعد عنه نسباً ممن يدعون أنهم من أمته، ولا يهتدون بهديه، ويتبعون غيره مستبدلين بشرعه شرع غيره، هؤلاء يؤتى بهم يوم القيامة ولا يردون الحوض، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إني

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٧٥٣، ١٩٠/٣، ١٩١.

هكذا تكون المفاصلة، وهكذا تكون

النتيجة، صفيين: صف إيمان لا كفر فيه، وصف كفر لا إيمان فيه، يحمل كل منهما تبعة اختياره، وثمرة زراعته، ولا يحمل أحد وزر أحد ولو كان ذا قربي. ليحذر المرء ولينتبه من غفلته وغروره، وأنه لن يحمل أحد عنه من أوزاره شيئاً، كي يبقى طائعاً لله وحده، مخالفاً كل ذي هوى.

ولقد ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون في إيمانها وصبرها أمام أعتى جابرة الأرض.

فقال سبحانه: ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحریم: ١١].

هذه المرأة الصابرة، رغم ضعفها الجسدي إلا إنها قوية بإيمانها، صبرت على أذى زوجها وتعذيبه، لأنها علمت أن ليس لها إلا ما سعت، وأن زوجها الكافر لن يغني عنها من الله شيئاً، ولن يدفع عنها ضراً، فكان قرارها الراسخ أن لا عودة إلى الكفر بعد إذ هدأها الله إلى الإيمان، وفي هذا عبرة للمؤمنين.

هذه النماذج، ما ذكرها القرآن على هذا المستوى -مستوى النبوة- إلا لتؤكد مبدأ المسؤولية الفردية، وأن المرء مهما علت

أنه عنه، فنزلت (١).

فالنهي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، حتى ولو كانوا أولي قربي. هذا النهي كان قد توجه لنبيين من أولي العزم هما نوح وإبراهيم عليهما السلام، فنوح نهاه ربه أن يدعو لابنه الكافر، وإبراهيم نهاه ربه أن يستغفر لأبيه المشرك، فكان الموقف مماثلاً مع النبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك كان النهي للمؤمنين في كل زمان أن يشفعوا للكافر ولو كان ذا قربي، لأنه حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يطبقونه أفضل تطبيق.

فقال الله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر (٢).

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

مكانته عند ربه، ومهما كان قريباً من ربه، فإنه لن يستطيع أن يحمل عن أحد وزراً ولو كان ذا قربي. فإذا كانت الأنبياء مع آبائها وأبنائها وأزواجها على هذا النحو، فكيف بمن هم أبعد من ذلك، كيف بمن اجتمعوا من أنساب شتى على الكفر والصد عن سبيل الله، والتأمر على دينه ويوم القيامة لا نسب ولا سؤال.

يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَنْتَهَمُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُؤْلُؤًا﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي هذا بيان للناس أجمعين - في كل زمان - أن يستشعروا خطورة الموقف، وتبعة المسؤولية الشخصية حينما يتبعون غير أمر الله، ويطيعون العصاة في معصية الله، ويحادون الله ورسوله تبعاً لكبرائهم، أو لأهوائهم ومصالحهم الذاتية، حيث تنقطع الصلات ومصالح الدنيا.

فقال الله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

ولقد وجد في البشرية من يتكل على فضائل الآباء، ظناً منه أنها تنفع الأبناء، ومن هؤلاء اليهود الذين ادعوا نسبتهم إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ولم يقتدوا بهم، ظانين أن النسب إليهم سينفعهم.

فرد الله تعالى عليهم هذا الادعاء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

فلكل ما كسب واكتسب، ولن ينفعوكم يوم القيامة.

ويزعم النصارى - حسب معتقداتهم - أن المسيح عليه السلام حمل خطايا الآخرين وكفر عنها بدمه، فجاء القرآن العظيم نافيًا هذا الاعتقاد الخاطيء، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِثْمًا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وصناديد الكفر يصدون عن سبيل الله تعالى، ويحرضون الناس على عدم اتباع الأنبياء والدعاة إلى الله، ويحثونهم على اتباع طريقتهم والعمل بمنهجهم، وتكثير سوادهم؛ لتبقى لهم القوة والغلبة، مؤملين أتباعهم بالأمانى الفارغة، والوعود الكاذبة وأنهم سيحملون أوزارهم عنهم.

حتى إذا حانت لحظة الشدة - في الدنيا والآخرة - تبرءوا من أتباعهم، فكان القرآن العظيم يقص قصتهم هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ تِنْفِيءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [١٢] وَيَحْمِلُونَ أَثْقَالَهُمْ

وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَنَّا يَوْمَ الْفَيْكَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٣﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

إن الكبار يحملون وزر إضلال الصغار ويتحملون تبعه الافتراء على الله، وسيحاسبون على جريمة إضلال الضعفاء، وللضعفاء تبعه تبعية الضالين المضلين، فكانت النتيجة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

فإعلان مبدأ المسؤولية الفردية على هذا المستوى، هو إعلان فيه التحذير الشديد من التقصير أو التهاون في شأن الطاعات والتزام أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وألا يتكل أحد على حسنات أحد مهما كان قربه من الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، القدوة

